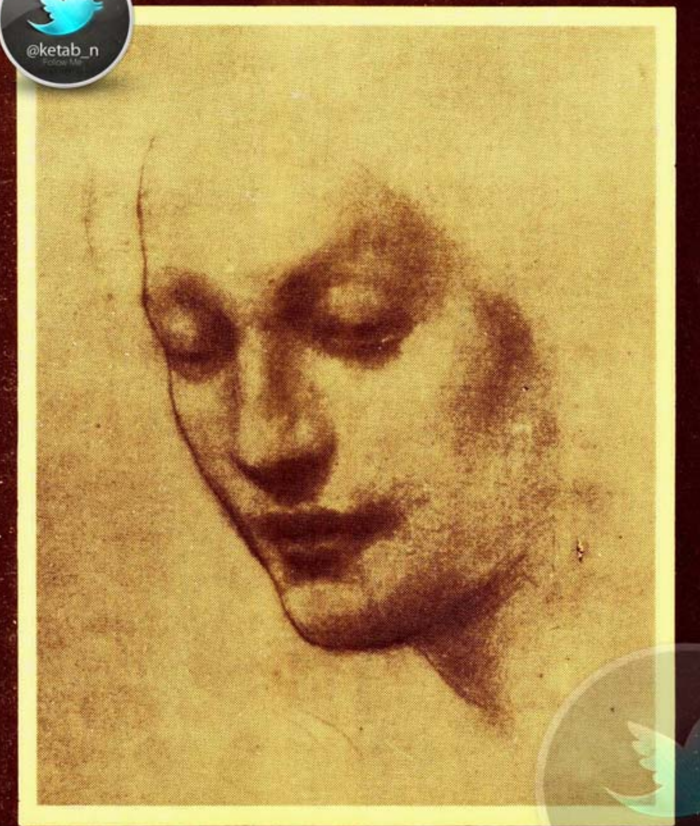
وَفِيق غريزي

نِساءٌ في حياة جبران

وَأثرهُنَّ في أدبِهِ



الطليعة . بيروت

وفيق غريزي

نساء في حياة جبران

وأثرهن في أدبه

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الغلاف : لوحة «المجدلية» بريشة جبران

بيروت ـ لبنان
ص.ب: ١١١٨١٣
تلفون: ٣١٤٦٥٩
٣٠٩٤٧٠

الطبعة الأولى
تموز (يوليو) ١٩٩٢

الإهداء

إلى رفيقة التشرّد والضياع ،

إلى التي سكبت في كأس جنوني نور الإبداع ،

وحلّقت معي في سماوات نائية...

إلى زوجتي حياة.

وفيق

الفهرس

التمهيد

في جميع العصور والأزمان ، لعبت المرأة دوراً أساسياً وبارزاً في حياة رجال الفكر والفن والأدب ، ولذلك كانت بمثابة الأرض المعطاء ، تنبت في أعماقها أشياء لم تكن في البال ، قبل وجودها المادي . ولعل الأعمال الكثيرة المختزنة في متاحف ومكتبات العالم خير دليل على أهمية المرأة ودورها كملهمة للإبداع في مختلف مجالاته .

يقول اراغون « المرأة أمٌ يولد من حبها الرجل ويهيم بها ، كما يهيم الإنسان في المناخات الصوفية . المرأة هنا ذات طابع كوني ، بصفتها مبدأ الخصب. والصوفي إنسان يعيش في هاجس النهائيات. ويتحرّق لفهم سرّ الكون وامتلاك هذا السر والإرتقاء به.وهذا لا يتم إلَّا عبر لظى عاطفي ومحبة متأججة ، تجمع بين المحبّ وموضوع حبه »[1].

وما قيل عن تأثير المرأة في حياة المبدعين يقال أيضاً عن تأثيرها في حياة أي رجل آخر ، لا أثر له في تطور وبناء الحضارة الإنسانية . ولكن بالرغم من أن المرأة ينبوع الوحي والإلهام ، بقيت حقيقتها مجهولة عند البعض. فكثير من «الكتاب والشعراء يحاولون إدراك حقيقة المرأة ، ولكنهم إلى الآن لم يفهموا قلبها ومخبآت صدرها لأنهم ينظرون

---

(١) د . فؤاد أبو منصور ، **اراغون في مواجهة العصر** ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٢، ص ١٨٠ .

إليها من وراء نقاب الشهوات ، فلا يرون غير خطوط جسدها ... أو يضعونها تحت مكبّرات الكره فلا يجدون فيها غير الضعف والاستسلام »[1].

وانطلاقاً من ذلك ، اعتبر بعض الفلاسفة الذين تأثر بهم جبران خليل جبران وأبرزهم فريدريك نيتشه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) اعتبر أن المرأة لغز غامض تعجز أعظم العبقريات عن فك طلاسمه، وقال «إن كل ما في المرأة لغز ، وليس لهذا اللغز إلا مفتاح واحد هو كلمة (الحبل) » . بمعنى أن الرجل ليس للمرأة إلَّا وسيلة ، أما غايتها فهي الولد . ثم يتساءل نيتشه في كتابه **هكذا تكلم زرادشت**: ولكن ما تكون المرأة للرجل يا ترى ؟ وبعد جهد يتوصل إلى أن يقول « إن الرجل الحقيقي يطلب أمرين : المخاطرة واللعب ، وذلك ما يدعوه إلى طلب المرأة فهي أخطر الألعاب». وبحكم انتمائه الاجتماعي ـ الطبقي ، رأى نيتشه أن المساواة بين الجنسين أمر مستحيل .. باعتبار أن الحرب بينهما سرمدية خالدة ..وفي هذه الحرب لن يحل السلام بدون نصر ، فالسلام يرفرف فقط عندما يصبح الواحد منهما هو السيد المعترف به .

ومهما كانت آراء الذين ناصبوا المرأة العداء ، فهم لا ينكرون أنها لعبت دوراً مهماً في مسار تفكيرهم ومعتقداتهم الفكرية والفلسفية والأدبية . ولكن هذا الدور أكثر إيجابية لدى الشعراء عامة والرومانسيين منهم خاصة. فالمرأة عند هؤلاء ليست من لحم ودم بقدر ما هي صنيعة خيالاتهم السامية . « إنها امرأة مثالية تتكون من الأحلام والأطياف ، هي روح شفافة ، وليست مزيجاً من الخير والشر ، ولكنها من خير مطلق ، وصفاء مطلق ، وحبها ليس حباً حسياً بل إنه لا يختلط بأي معنى من المعاني . إنه حب روحي يسمو فوق نداء الغريزة ،

---

(١) جبران خليل جبران ، **المؤلفات الكاملة** ، بيروت ، دار صادر ـ ١٩٦٤ ، ص ٢٢٣ .

ويختلف عن ذلك الحب العادي الذي يعرفه الناس »[١].

إن هذه المثالية جسّدها الشاعر التونسي المتمرد أبو القاسم الشابي (١٩٠٩ ـ ١٩٣٤) الذي هو بمثابة الصنو الروحي لجبران . حيث كانت المرأة بالنسبة إليه « هي الملاك الذي يهبط من عالم الخيال السحري ليشفي الجراح ، ويحمل رحيق الوجود المقدس إلى القلوب التي تبحث عن مأوى وتحلم بالدفء ... وهذا هو الحب زهرة الأزهار ، ومعنى المعاني ، في هذه الحياة ... إنه شيء مثالي لم يتلوث بالتراب أو بتجارب الواقع ، وهو حب حزين بالرغم من ذلك لأن الموت مثل الثعبان الذي يختفي في زوايا الحياة ليلدغ الزهور الجميلة ويقضي عليها في روعة شبابها السحري العميق »[٢].

وموقف جبران خليل جبران يلتقي مع موقف الشاعر الهندي رابندرانات طاغور (١٨٦١ ـ ١٩٤١) إزاء المرأة.

فهذه المرأة التي كبلتها الواجبات المنزلية ، وإشباعات الرجل الغرائزية والإنجاب في المجتمع الأبوي السلطوي ، أُبعدت عن حقيقة الوجود ، وتُركت على هامش العالم . وهذا الواقع الأليم الذي عاشته المرأة الشرقية أثار نقمة طاغور كما أثار نقمة جبران . وقد صرخ طاغور بالمرأة قائلاً « أود أن تخرجي إلى قلب العالم الخارجي وتلتقي بالحقيقة ، فأنتن النساء لستنّ ربّات المنزل فحسب ، بل شعلة الروح ذاتها»[٣]. ورأى طاغور أن القوّة التي تستحوذ على هؤلاء النساء هي قوة الرجال الأشداء ، هي القوى التي تستحوذ على عالم الواقع.

هكذا ، يقف جبران خليل جبران مع طاغور ووليم بليك وغيرهما

---

(١) رجاء النقاش، **أبو القاسم الشابي** ، بيروت ، دار القلم ، ١٩٧١ ، ص ٣٩ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٤ .
(٣) رانبدرانات طاغور ، **البيت والعالم** ، ترجمة : د. شكري محمد عبّاد ـ القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٦٦ ، ص ٢٩ .

على ضفة واحدة من قضية المرأة.

فبالنسبة له كانت « رمز الأم الكبرى ـ الأرض ـ معدن العطاء ، فمثلما الأرض تنسل خطواتها في دورة حول نفسها ، ودورة حول الشمس ، هكذا المرأة في نوعها ، وفي إنسالها الحياة وخضوعها كالأرض لتناغم فلكي يجيء بمثابة عمل جنسي من أجل استمرار الوجود . واستناداً إلى أن الإنسان ـ الخلية ، قبل الذكورة والأنوثة كان يتناسل في ذاته»[1]. ويؤكد جبران أن الرجل يشتري المجد والعظمة والشهرة ، ولكن هي المرأة التي تدفع الثمن. والرجل الذي يرتكب أكبر الأخطاء والهفوات ، لا يغفر للمرأة أصغرها ، حتى ان الشرائع والتقاليد السائدة في المجتمع تعاقب المرأة على زلتها ، بينما لا تلمس الرجل بأي ضرر بالرغم من ضلوعه في هذه الزلّة أو السقوط . ولقد ميّز جبران بين النساء ، وأدرك أن ثمة فرقاً كبيراً بين امرأة وامرأة . يقول للنحات يوسف الحويك أثناء وجودهما في باريس «: كأن النساء لسن جميعاً من فصيلة واحدة »[2] واعتقد أن قلب المرأة الحسّاس يتدفق سعادة للبشر . ومن عواطف نفسها الشريفة تتولد عواطف نفوسهم . فهذا الكائن المكمِّل للجنس البشري ، الذي يتألف من شطرين الرجال والنساء ، خصّه الله والطبيعة بالرقة والحنان . وهذه المرأة التي تمنحها الآلهة النفس مشفوعة بجمال الجسد هي حقيقة ظاهرة غامضة . نفهمها بالمحبة ، ونلمسها بالطهر . وعندما نحاول وصفها بالكلام تختفي عن بصائرنا وراء ضباب الحيرة والالتباس ، حسبما يرى جبران.

فعندما يتآلف إثنان رجل وامرأة ، يكون بمقدورهما أن يتمتعا معاً بأعمق لحظة روحية تقدمها الحياة إلى البشر ، وأنهما يخلقان بتمتعهما

---

(١) جبران خليل جبران ، **المؤلفات الكاملة** ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٢٤

(٢) يوسف الحويك ، **ذكريات مع جبران** ، جمع أدفيك شيبوب، بيروت، مؤسسة نوفل ، ١٩٧٩ ، ص ٦٩ .

هذا «ذاتاً» كأنها هي جنين حي ـ حبلا به وولداه، ذاتاً هي قوة غير منظورة ، ولكنها تبقى وتخلق بدورها ذواتاً أخرى ... إنهما يكونان قد أنشدا أغنية لا تموت ، ونظما شعراً لا يفنى.

وردَّ جبران على مزاعم البعض أن المرأة تريد أن تكون محبوبة من الرجل بقوله « الحقيقة أن المرأة تريد أكثر من ذلك ، ونساء عديدات يرغبن في إنجاب الأولاد ، ورغبتهن هذه هي في إعطاء الحياة للأطفال نابعة من صميم كيانهن ، فهي تريد الرجل غالباً كمفتاح للطفل الكامن فيها ، كي ينال الحياة منها »[١].

تظهر في مقولة جبران تلك مؤثرات نيتشوية ، إلا أنه في مرحلة سابقة كان قد عبَّر في كتاب **دمعة وابتسامة** عن رأي مخالف للرأي أعلاه حيث قال « الحب العظيم قد جعل قلبي مذبحاً طاهراً ـ هي المرأة يا خليلي ـ المرأة التي ظننتها بالأمس ألعوبة . المرأة الحقيقية قد ذهبت بي إلى أردن محبتها وعمدتني ».

وهذه الدراسة تتناول النساء اللواتي مررن في حياة جبران ، وتأثيرهن على أدبه وفنه وكينونته .

---

(١) جبران خليل جبران، **المؤلفات الكاملة**، مصدر سبق ذكره ، ص ١٨٣ .

المرأة والحب الجبراني

منذ بدء الخليقة ، كانت عاطفة الحب الأثيرية ، التي جمعت بين الأرواح البشرية ، وخاصة بين الذكر والأنثى ، هي الفسحة الجمالية ـ الطهرانية ، التي تنبثق لاإرادياً من ثنايا القلوب . وكلما تسامت هذه العاطفة كلما اقترب الانسان من الجمال المطلق ، حتى أصبحت بنظر جبران :

« الجمال الحقيقي ، أشعة تنبعث من قدس أقداس النفس ، وتنير خارج الجسد ، مثلما تنبثق الحياة من أعماق النواة ، وتكسب الزهرة لوناً وعطراً.

الحب هو تفاهم كلي بين الرجل والمرأة ، يتم بلحظة ، وبلحظة يولد ذلك الميل المترفع عن جميع الميول . ذلك الانعطاف الروحي الذي ندعوه حباً ، فهل فهمت روحي روح سلمى في عشية ذلك النهار ، فجعلني التفاهم أراها أجمل امرأة أمام الشمس !...»[١].

إن هذه الشعلة المقدسة التى تضيء غياهب النفس هي المحبة الحقيقية، وهذه المحبة لا تسكن قلباً واحداً بل قلبين... الشعلة التي يفصلها اللّه عن ذاته ويقسمها إلى نصفين رجل وامرأة.

إن الانسان بدون حب يبقى كائناً حياً لا يتعدّى مادية اللحم

---

(١) جبران خليل جبران ، **المؤلفات الكاملة** ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٤ ، ص ١٨١ .

والدم . وخير من عبّر عن هذه الكينونة ـ الشاعر إيليا أبو ماضي (١٨٩١ ـ ١٩٥٧) عندما قال :

أحبب فيغدو الكوخ كوناً نيّراً وابغض فيمسي الكون سجناً مظلما
ما الكأس لولا الخمر إلا زجاجة والمرء لولا الحب إلا أعظما

الحب العظيم ، الذي لا يتولد من شهوة اللحم والدم والغرائز لا ينبع إلاَّ من المعرفة العظيمة بموضوع الحب « فإذا لم تكن تعرفه إلا قليلاً فإنك لن تملك أن تحبه إلاَّ قليلاً ، أو لا تحبه على الاطلاق »[1] . ولهذا نرى المبدعين وقد جعلوا من أنفسهم تربة خصبة لبذور الحب ، كي تتفتح أزاهير ووروداً ، يعبق شذاها في فضاء كياناتهم . فعاشوا فيه ، وترعرع في أعماقهم وبات ينبوع عطائهم الفني والأدبي والفكري ، منه يستلهمون. يقول جبران : « إنه يفضل أن يموت ويفنى شوقاً من أن يكون بعيداً عن الحب والشوق » . وكان يردد في أحيان كثيرة أنه يريد أن يكون طعاماً للنار المقدسة ، ويكره أن يكون محاطاً بثلوج الاستكفاء . وفي حوار بينه وبين النحات يوسف الحويك في باريس قال جبران :

« هو الحب يا يوسف ... سكر يجري مع الدم في العروق ... وأنواعه متعددة لا تحصى، حتى إنه يكاد أن يكون لكل انسان ولكل انسانة نوع خاص ، تعيّنه الصدف والحظ ... وربما طول القامة ولون العينين ... إن الانسان لم يعد يعيش في الغابات والمغاور ... سنَّ الكهان شرائع للحب تكرهها نفسي ، لأنها مستوحاة من الجهل والكبرياء والظلم والعبودية . فالمرأة مضطرة للخضوع ، فهم لم يشاوروها غداة وضعوا الشرائع والقوانين في أمر يهمها أكثر ما يهمهم . ثم راحوا ينسبون شرائعهم للخالق ، والخالق براء منها ، لأنها متى

---

(١) جبران .. رسالة إلى سليم معلوف ـ ٢/١١/١٩٠٦ .

حُلِّلَتْ وُجدت بعيدة عن روح العدالة الإلٰهية »[1] .

وفي قصيدة المواكب قال جبران :

«والحب في الناس أشكال وأكثرها
كالعشب في الحقل لا زهر ولا ثمر
وأكثر الحب مثل الراح أيسره
يرضي ، وأكثره للمدمن الخطر
والحب إن قادت الأجساد موكبه
إلى فراش من الأغراض ينتحر
كأنه ملك في الأسر معتقل
يأبى الحياة وأعوان له غدروا»[2]

لقد تميّز جبران عن غيره في موضوع الحب . فالحب الذي نعرفه في كتاباته كلها ذو طابع صوفي يتسامى عن غرائز الجسد ، ويحلّق بأجنحة ماورائية تلامس عرش النور السماوي . فالحب الذي هو الحقيقة الأولى في حياة البشر ، هو عند جبران أساس التحليل والتحريم في العلاقة بين الرجل والمرأة ، هو الركن المتين للسعادة والمعرفة والحقيقة . فعن طريق هذه العاطفة المقدسة يرتد الانسان إلى فطرته الأولى النقية ، ويعود إلى حقيقته الخالصة الطاهرة ، ويتحرر من سجن المادة والجسد . ومن يقرأ المؤلفات الجبرانية ، ويسبر أعماق مضامينها ، سيرى أن « مثار العراك فيها مجتمع لا يفهم الحب إلّا وسيلة لمآرب أنانية قذرة ، ويعمل للقضاء على كل حب سماوي بريء »[3].

---

(١) يوسف الحويك، **ذكرياتي مع جبران**، جمعتها أدفيك شيبوب، بيروت ، مؤسسة نوفل ١٩٧٩، ص ١٣٤ .

(٢) جبران خليل جبران ، **المؤلفات الكاملة** ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٥٩ .

(٣) مصطفى سليم علم الدين ، **نبي جبران وزرادشت نيتشه** ، بيروت ، مؤسسة خليفة ، ١٩٨١، ص ٤٨ .

فالحب في رأي المصطفى الجبراني وسيلة لتعرية الانسان من براقعه المصطنعة ، ينقيه من الأشواك العالقة فيه ، ويتعهده بناره المقدّسة . وقصّة **الأجنحة المتكسّرة** هي حكاية عن هذا الحب الجارف « الذي جمع بين قلب جبران المنفتح إلى الحياة وقلب حلا الضاهر سليلة المجد والغنى ، والذي تآمر عليه أهل حبيبته بالتعاون مع رجال الدين ، حتى استطاعوا في النهاية التفريق بين العاشقين »[١].

الحب عند جبران ليس حناناً واشفاقاً ، انما هو شراكة وتناغم روحي وتحرّر وكينونة . وكان جبران يبحث في المرأة عن الحب الذي يستطيع أن يعيش بدونه ، وأعرب بعنف عن تمرده على عبودية الحب التي كانت سلاحاً ضد محاولات النساء للإلتزام بهن أو بواحدة منهن.

وبعض الباحثين أطلق على مفهوم جبران للحب اسماً خاصاً هو « الحب الجبراني » كما أطلق الأقدمون اسم « الحب الأفلاطوني » . ورأى هذا البعض أن سمات الحب الجبراني مغايرة لكل ما هو عصري متصل بالحب ... لأننا نعيش عصراً مادياً ، اختلّت فيه الموازين وانهارت القيم ، وقامت الثورة الجنسية ، ولم يبق إلاّ قلّة من المبدعين الذين ينبّهون الضائعين إلى القيم الجمالية والروحية الكامنة في أعماق ذواتهم ، التي تجعل منهم أجمل مخلوقات اللّه . ففي رأي سلمى الحفار الكزبري ان «الحب الجبراني، انطلاقاً من رسائله إلى مي زيادة ، حب ضبابي ـ سماوي ، يسمو عن كل ما له علاقة بالأرض » .

وتقول ماري هاسكل في يومياتها : « كنت أعرف أن قلّة لجوء جبران إلى كلمات الحب ناشئة عن عظم حبه ، لا عن قلّته . لكني لا

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٤٩ .

أعرف أبداً السبب ، وأخيراً اكتشفته وهو أن حياته بكاملها حب ، هي الحب »[1].

أما صديق جبران فقد كان أكثر واقعية من المغالين في حبهم له ، مما جعلهم ينظرون إليه وكأنه نبيّ مُرسَل من لدن اللّه . ميخائيل نعيمة رأى أن جبران بشري أحب كما يحب الناس ، ويشرب كما يشرب عبيد اللّه . وجمع من حطام الدنيا مثلما يجمع معظم الخلق . أليس من الجنون الاعتقاد بأن جبران لا يعيش باللحم والدم كسائر البشر ؟.

وكتب مارون عبود «لا شك أبداً أن دم جبران حارٌ جداً ، وان زعمت غير ذلك فرسومه تكذبني . إن تياراته الفكرية في أدبه وفنه تتجه دائماً صوب الحب الذي يراه الحياة كلها . ومن قرأ أول حرف وآخر حرف مما كتبه جبران ، رأى الحب كنجمة القطب وإليها تتجه السفينة»[2].

من المؤكد أن جبران يكره الحب المبتذل والمبتذلين . ففي احدى المناسبات طرح عليه يوسف الحويك ، انه يعتزم السفر مع صديقته سوزان إلى الصين . فغضب جبران وقال : إلى الصين ، ومع صبية عيناها تغزلان غزلاً ؟ والحب عندها كشربة ماء ؟ هذا لعمري هو الجنون بعينه يا يوسف ، أمنعك بكل قواي حتى عن المزاح بهذا المعنى[3].

اذن ، الحب عند جبران يقف على خط مناقض للحب عند نيتشه . فالحب عنده يخرج من عمق النفوس الطاهرة ، وجزء من المحبة المطلقة . أما عند نيتشه فيخرج من الكراهية ، ينبثق وكأنه تاج رأس المرأة « تاجاً مظفراً ، واتسع تحت أشعة الشمس ، شمس النقاء الدافئة ، لكنه في هذا المجال الجديد ، وفي ظل البهاء والسمو ، ما زال

---

(١) ماري هاسكل، **نبي الحبيب**، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٧٤، الجزء الأول، ص ١٢٤.

(٢) مارون عبود ، **جدد وقدماء** ، بيروت ، دار الثقافة ، بدون تاريخ ، ص ١٤٧ .

(٣) يوسف الحويك ، **ذكرياتي مع جبران** ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٧ .

يسعى دائماً لنفس أهداف الكراهية ـ النصر ـ الفتح ـ الغواية ، بينما تتغلغل جذور الكراهية متلهفة مثابرة ، في سراديب حقل الظلمات والشر »[١].

وبما أن حياة جبران بكاملها حبٌ، فلقد تعرّف على نساء عديدات كان لبعضهن تأثير ملحوظ وفعال في تكوينه الفني والأدبي ، وبالتالي في مسار حياته . فهل كان الحب الذي عرفه جبران عملياً تجسيداً حياً لعقيدته النظرية ـ الفكرية التي بشّر بها في مؤلفاته ؟. هذا ما سنراه في الفصول اللاحقة.

« إن الحب لدى جبران كجدول المياه الجاري ، لا يأبه له الناس ، بل يحسبونه أمراً مضموناً . أما إذا تجلَّد الجدول ، فحينئذٍ يتذكر الناس كيف كانت مياهه عندما كان جاريا ، فيتشوّقون إلى جريانها فيه من جديد »[٢] : وانطلاقاً من هذا الإيمان أقام جبران علاقات وصداقات كثيرة مع النساء . وقد نقلت ماري هاسكل في يومياتها بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني ١٩٢٣ قوله : « إن أشخاصاً ثلاثة لهم الفضل الأكبر في حياتي أكثر من سواهم : والدتي باطلاقها لي الحرية ، وأنتِ بإيمانكِ بي وبعملي ، ووالدي الذي أيقظ فيّ روح المقاتل». وإنه أراد أن يعرض لماري عدد النساء اللواتي عرفهن قبل التعرّف عليها إلا أن ماري رفضت ذلك ، ليس بدافع الغيرة ، وإنما بدافع رفضها أن تكون قاضياً على ماضيه . إنما كان لجبران ذوق خاص بالنساء. فالنوع الذي ينجذب إليه جسدياً هو نادر الوجود ، وما لا جاذبية له كان يثير في نفسه الاشمئزاز والغثيان في علاقات الجسد الحميمة.

وكان جبران مسحوراً بالجمال الخلّاق ، وخاصة الجمال الأنثوي

---

(١) نيتشه ، **اصل الاخلاق وفصلها** ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للنشر ، ١٩٨١، ص ٣١.

(٢) ماري هاسكل ، **نبي الحبيب** ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الثالث ، ص ٤٩ .

الذي هو أبدع مخلوقات اللّه . فيوسف الحويك قال في ذكرياته:«فيما نحن يوماً نتناول الغداء في مطعم صغير قرب حديقة اللوكسمبورغ ، انتبهت أن جبران شارد الذهن مُتَلَـهٍ عني، ولما سألته أين هو، قال: ما لنا ولمشاغل الحيـاة الآن يا يـوسف، التفت إلى يسارك إلى تلـك الحسناء الجالسة وحدها تأكل على مهل ، وتطالع في كتاب أمامها »[١] إنها الجمال يتجسَّد بصورة بشرية.

وكل امرأة عرفها جبران كانت تريد امتلاكه والتفرُّد به . تقـول هاسكل في يـومياتهـا/ ٢٩ آب ١٩١٣/ كل امـرأة تريـد أن تصبح موضوع انتباهه الرئيسي ، فهي لا تشتهي غير أو أقل من هذا الانتباه الشخصي والمتبادل الذي لا يحمله لأية واحدة . وإن الاهتمام الذي تظهره النساء نحوه ، إنما هو اهتمام بعمله وتفكيره كما هي الحال في بعض الأحيان. لأن الكثير من النساء يجذبهُن وهج الشهرة ،والأضواء . لكنهُن، هؤلاء النسوة ، كن يردن أن يهبن بسخاء كل ما لديهن ، لا أن يأخذن . يردن اعطاء أفضل ما لـديهنَّ ، لا قبول أفضـل ما لـديك . وأحياناً تكون الحالـة مع النسـاء مجرَّد ضجـر من أزواجهن الطيبين فيرغبن في التسلية في موضع آخر . ومميزات المرأة التي من شأنها أن تجد الطريق مفتوحاً إلى قلب جبران هي التي تكون مزيجاً من بياتريس (الطهرانية كحبيبة دانتي) وسالين (صاحبة الجسـد الشهواني) ، ولكن الطامة الكبرى ، حسب قول جبران للحويك ، أن تكون جميلـة ، فجمالها بالذات يكون سبباً لعدم الاطمئنان.

ورضاه عن مسلك النساء تجاهه كان فريداً . فبربارة يونغ تقول في كتـابها عن جبـران **هذا الـرجل من لبنـان**: «أحبته نسـاء كثيرات بحرارة واخلاص هما وليدا الشكران العميق والتعبّد ... لقد أحببنه حباً مجرداً لا مطمع فيه .. حباً لم يتطلب منه شيئاً ، ولا كان ينتظر منـه

---

(١) يوسف الحويك ، **ذكرياتي مع جبران** ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٣ .

شيئاً ... بل عشقته بعض النساء عشقاً »[١] . إن هذا القول فيه كثير من المبالغة ، وينفي الحقيقة الموضوعية ، لأن بعض النســاء كن يطمعن بإقامة علاقات جسدية مع جبران ، عن طريق الزواج أو غيره من الطرق المؤدية إلى الجسد . ولو لم يدرك جبران أهداف وغايات هذا البعض التي تتناقض مع أهدافه وغاياته لما عمل على أن يحمي نفسه منه . وتؤكد هاسكل ذلك عندما قالت عام ١٩١٥: « لا استغرب أن تحبه النساء»، لأنها ترى أنه يمثل لكل امرأة انطلاقها. «إن توجيه النساء لرغباتهن صوبه هو شيء طبيعي ، وإنها لا تحتقر النساء لأجله ، وعلى جبران أن لا يقلق إذا كانت مبيضات امرأة ما تقلقها »[٢].

إن كثيراً من النساء كن يلبين نداء الجسد حيال جبران بغية إشباع الجوع الصارخ في أعماق كيانهن . ولكن جبران كان له مذهب ذاتي ، هو أن يحيا الحياة بكاملها ، بكل ما تحمل في ثناياها من أفراح وأتراح ، جمال وألم . ولا يستطيع أحد ممن عرفوا غنى كيانه وأحاطوا بكل ما فيه من شمول أن يشك في أنه أوفى مذهبه حقه . ورأت بربارة يونغ أن من « النساء اللواتي عرفهن ماهرات كثيرات يسئن استعمال نقد جبران وتعامله معهن . فإذا ما ظهرت امرأة وادعت أنه رجل عظيم كان لها وحدها، فمن الحكمة أن نحذِّرها خصوصاً إذا ما ادَّعت ذلك بعد وفاته»[٣]. وتضيف يونغ « علينا أن نتذكر كيف يصبح الرجل العظيم بعد وفاته فريسة لأولئك اللواتي مدَّ لهن يداً كريمة من أيادي وداده ومحبته ، فتهمس منهن من تهمس بوجود علاقات متينة بينهما ... علاقات لا أساس لها إلا رغباتها وأحلامها . إنه يصفهُن فيقول : لقد حلمن حلماً ليس إلَّا »[٤] . إن يونغ بحكم حبها المطلق لجبران تاهت

---

(١) بربارة يونغ ، **هذا الرجل من لبنان** ، بيروت ، دار الأندلس ، بدون تاريخ ، ص ١٦٨ .
(٢) توفيق صايغ ، **أضواء جديدة على جبران** ، بيروت ، الدار الشرقية ، ١٩٦٦ ، ص ٢٣ .
(٣ ـ ٤) بربارة يونغ ، **هذا الرجل من لبنان** ، مصدر سابق ، ص ١٧١ .

خارج مسار الحق والحقيقة . وهذا الحب أفقدها لحد ما الموضوعية ، واتهمت النساء دون بيّنات أو وقائع مادية ثبوتية . وجرّدت بنات جنسها من صفاتهُن لتلقي هالة من الدونجوانية على جبران . فجبران لم يكن ذاك الدونجوان الذي كان شغل النساء الشاغل ، وليس هو مَن مَدَّ يَداً كريمة للنساء. فهو يعترف بأنه «مدين لكل حب أحبينه، وعطف أبدينه نحوي ، غير أنهن يرينني أحسن مما أنـا . انهن يحببن فيّ الشاعـر والرسام ، ويتمنين لو يملكن شيئاً منه . أما نفسي فإنهن لا يرينها ولا يعرفنها ولا يحببنها». إن هذا الاعتراف يدحض بما لا يقبل الشك ما ادعته يونغ بدافع العاطفة العمياء . ويـوسف الحويـك يقول : لم يكن جبران دونجواناً ، كما يزعم البعض . ويتذكر حادثة وقعت مع جبران في باريس تنم عن خجل جبران في حضرة المرأة ، فيقول :

« قدَّم جبران هدية إلى روزيتـا الإيطاليـة ، فقبَّلته على خـده . عندئذ تخضبت وجنتاه بالدم دون أن يجرأ على إعادة القبلة »[(١)].

فجبران رغم علاقـاته النسـائية كـان يندد بـالمرأة المبتـذلة ، الرخيصة ، المحتقرة لانسانيتها والعابثة بجمال الجسد ؛ المرأة التي لا تحفل إلا بإشباع شهواتها ، فتعرض نفسها في شارع الحيـاة وعلى أرصفتها ؛ تلقي البسمة على ثغرها لتغرير الرجل ودعوته إلى مـائدة الجسد الترابي ؛ لا هم لها إلّا أن تستثير انتباهه وتجتذبه إليها . وتنديد جبران هذا ناتج عما رآه في الغرب . حيث المرأة هناك تخلع عنها ثوب الحشمة وتتبرج بوقاحة ، لتطمس به معالم شخصيتها وانسانيتها.

وبكلمة موجزة ، لعبت المرأة دوراً بارزاً ومميَّزاً في حياة جبران من المهد الى اللحد . وكان لها اليد الطولى في وجوده وتحديد مسار حياته في دروب المجد . ففي الطفولة كانت الأم والشقيقة ، وفي الفتوَّة تلقفته يدها ، وأخذت بيده لتسير به وتدفعه إلى تحقيق طموحاته . ففي

---

(١) يوسف الحويك ، **ذكرياتي مع جبران** ، مصدر سابق ، ١٢٧ .

المدرسة التي كان يقصدها لتعلّم الانكليزية في بوسطن ، وهو يومذاك في الثالثة عشرة من عمره ، « لفت نظر إحدى المعلمات ، وتدعى فلورنس بيرس ، ببراعته في الرسم . فحرك فيها الرغبة في مساعدة هذا الولد الشرقي الفقير على مواصلة ثقافته الفنية . وكتبت إلى معلمة أخرى أكثر منها نفوذاً تدعى جسي فريمونت بيل . وهذه بدورها كتبت عن جبران إلى الرسام فريد هولند داي»[1] الذي تبنى جبران وقدَّم له كل مساعدة ممكنة ، ووضعه في بداية الطريق الطويل ، الذي سار فيه جبران حتى نهاية الحياة.

أما النساء اللواتي كان لهن دورٌ بارزٌ في حياة جبران وأدبه وفنه ، فهن كثيرات وأولاهن كانت جوزفين بيبودي . والفصل التالي سيلقي ضوءاً عليهُن جميعاً .

---

(١) روز غريب ، جبران في اميركا ، بيروت ، **النهار** ، ١٠/٧/١٩٨٦ .

الفصل الثاني

نساء في حياة جبران

جوزفين بيبودي

جوزفين بيبودي ، شاعرة وكاتبة مسرحية أميركية ، كانت أولى النساء اللواتي أسهمن في توجيه جبران وشحذ مواهبه . ولدت في أسرة وافرة الثروة ، عُرف أعضاؤها بتذوّق الفن ورعايته ، أصابتهم نكبة مالية ، حين كانت جوزفين في العاشرة من عمرها ، فضاقت في وجوههم أبواب الرزق . « لكن جوزفين تمكنت من مواصلة ثقافتها ذاتياً ، فحصلت على منح مالية مكنتها من إكمال برامج التعليم الكلاسيكي في كليَّة رادكليف ، وتخرجت منها سنة ١٨٩٦ . ثم حققت بعض المكاسب في نشر قصائدها الشعرية في الصحف . وفي سنة ١٨٩٨ نشرت أولى مجموعاتها، **عابرو الطريق**، وكانت في الثالثة والعشرين من عمرها»(١) وفي الثامن من آذار ١٨٩٨ أقام صديق جبران فريد هولند داي معرضاً لرسومه الفوتوغرافية المأخوذة عن جبران بأزياء ومواقف مختلفة ، خاصة الأزياء الشرقية والعربية . وكان بين الذين حضروا المعرض جوزفين بيبودي وذواقة الفن الغنية سارة مونتغمري سيرز . وبعد التعارف دعت جبران إلى دارها والتقى عندها ثانية بجوزفين التي

---

(١) روز غريب ، جبران في أميركا ، بيروت ، **النهار** ، ١٠/٧/١٩٨٦ .

استأثرت باهتمامه ، وحازت على إعجابه ، وخفق لها قلبه من النظـرة الأولى ، وسحر بجمالها الفاتن ، وذكائها الخارق . وكان عمـره آنذاك خمسة عشر عاماً . وأخذا يجتمعان ويتحدثان في موضوعات مختلفة ، إلى أن عزم على العودة إلى الوطن الأم لدراسة لغته الأصلية . وشاءت الظروف أن يسافـر جـبران ، دون أن يتمكن من وداعهـا ، « فاكتفى برسم صورة لها من وحي ذاكرته ، أبرز فيها تموجات شعرها الأسود المرسل على خديها ، وعينيها اللماعتين ، وفمها المنادي ، وكتب عليها بالعربية « من جبران خليل جبران إلى العزيزة غير المعروفة جوزفين بيبودي ، ومؤرخة في ٢٣ آب ١٨٩٨ »[١] . وبعد وصوله إلى لبنان ، كان طيف جوزفين يغزو خياله ، ولـواعج الحب تخفق في حنـايا فؤاده . إلا أن أمله كان ضئيلاً ، وشعلته تخبو يوماً بعد يـوم ، ظناً منـه بأن هـذه الحورية الساحرة الـتي ملكت كيانه ، لن تتذكره وهو مجرد عابر سبيل في دروب حياتها المتشعبة . إلى أن كان يوم ١٢ كانون الأول من العام ذاته ، هذا اليوم الذي بدَّد غيوم التشاؤم ، حاملاً التفاؤل بكل إشراقته . فعلى حين غرَّة تسلَّم جبران رسالة من جوزفين ، فملأت قلبـه سعادة وحبوراً . كتبت جوزفين تقول في الرسالة : « إن صانعي الجمال مثلك يهبون الآخرين خبز الحياة . لا أدري كيف هي بلادك ، وهل لديك مكان هادىء تنمو فيه ؟ »[٢] اهتز جبران غبطة لـدى قراءة كـل كلمة وكـل حرف ، وشعر أن الزمان يبسم له . فأخذ يجهد عقله كي يكتب لها رسالة جوابية ، بلغة إنكليزية ركيكة وعاجزة عن تصوير مشاعره وأحاسيسه التصوير الدقيق . فبعث لها برسالة في آذار سنة ١٨٩٩ ، قال فيها :

«حسبت أن أملي باستلام رسالة منك قد توارى ، وإذا بكتابك يصلني ويعبر لي أكثر مما تعبر كلماته . ما أسعدني ! إن قلمي ليعجز

---

(١) جميل جبر ، **جبران في حياته العاصفة** ، بيروت ، مؤسسة نوفل ، ١٩٨١ ، ص ٢٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣١ .

عن الإفصاح عما في نفسي . إني أكنّ لك حباً في أعماق قلبي عبر آلاف الأميال . أظن أني أعرف ما يكفي لأقول لـك ، سأحتفظ بصداقتك ، وسأحتفظ بذكراك بالقـرب من قلبي ، ولن يفرِّق أي شيء بينـك وبين فكري »[١].

وعـادت الذكـرى بجبران إلى بـدايـة التعـارف. وكتب في نفس الرسـالة يـذكرها كيف أن يد القدر ، قد جمعت بينها وبينه دون إرادة منهما . فقال: « لن أنسى أبداً لما تكلمت معي وحدك ، تلك الليلة خلال معرض السيد داي . تلك الليلة سألت السيد داي من هي هذه السيدة في الثوب الأسود ؟ فقال لي : « إنها الآنسـة بيبودي ، وهي شـاعرة فتيَّة ، وأختها رسامة » . قلت له : يا للعائلة السعيـدة ، كم أحب أن أتعرَّف إليها »[٢] . واستمرت بذرة هذا الحب تنمو وتكبر في تربة نفس جبـران البكر . وعـاد إلى بـوسطن ، وأخـذت هـذه العـلاقـة تتعمق ، وتتجـذر ، وجبران يـروي براعمهـا من عصارة روحـه ، ودماء قلبـه ، ومن نفحة الحياة في عروقه . وخلال احتفاله بذكرى ميلاده العشرين ، أي عام ١٩٠٢ ، شربت جوزفين نخبه في بيتها ، وبدأت تحـدثه عن المستقبل الذي ينتظره وراء الأفق . وسألته ليلتذاك هل يروقه أن تقترح على صديقتها الألمانية مارغريت مولر أن تختار بعض لوحاته لمعرض الربيع الذي سيقام في مدرستها ؟ . وبالفعل ، وبعد موافقته على هذا الإقتراح الذي ينم عن روح المحبة ، التقى جبران بالآنسة مولر وأطلعها على بعض لوحاته التي تحمل معظمها ملامح جوزفين . وفي ٢٤ حزيران من العام ١٩٠٣ ، كتبت جوزفين في مفكرتها : « جاءني أمس وكأنـه خارج من عالم الشقاء إلى عالم أشد فرحاً . لقد نسينا للحظات ما يحيط

---

(١) رياض حنين ، **رسائل جبران التائهة** ، بيروت ، مؤسسة نوفل ، ١٩٨٣ ، ص ٢٦ .

(٢) المصدر نفسه .

بنا ، وجلسنا حـول المدفـأة نتحدث كمن قبـل »[1] أصبحت جوزفين الواحة الخصبة في صحراء حياته ، يرتاح في ظلالها من عناء التعب ، ويرشف الحب والحنان المفتقد بعد وفاة أخته سلطانة وأخيه وأمه من هذه الروح المعطاء . وهذا الحب بدأ يترك انعكاساته على لوحات جبران الفنية . وأهم معروضاته من مجموعة جوزفين : « حلم الحياة ، تحدر الحكمة ، أحد العوالم ، نور وظلام . حتى أن عناوين المجموعة كانت من إيحائها »[2] . بعد مرض شقيقه بطرس عام ١٩٠٣ ، بدأ العذاب والألم ينخر في أعماق كيانه . فلم يجد له ملاذاً يخفف عنه وطأة الألم الكبير سوى جوزفين . فذهب إليها « وارتمى على صـدرها كطفـل محروم . فحنت عليه كأم وأطلعته على مذكراتها . واستمر يزورها يومياً بعد حلول الظلام »[3] . أصبحت عاطفة جوزفين تجاهه بمثابة « العكازة » التي فرَّ بها جبران من تعاسته ، وهو يرى أخاه يحتضر وأمه على فراش الموت .

وعام ١٩٠٤ شكّل محطة هامة في حياة جبران العاطفية. فكأن القدر لم يحمل إليه إلاَّ التعاسة والعذاب والبؤس ، استكثر عليه هذه السعادة التي تقويّ من إرادته للتغلب على صروف الدهر وغدره . ففي أحد أيام ذلك العام ، زار جبران حبيبته كالمعتاد . إلاَّ أن استقبالها البارد له كان صدمة قـاسية لـه ، فرجع يجر وراءه أذيال الخيبة والإنكسار . وعلى أثر هذه الصدمة ، كتب لها رسالة قاسية اللهجة . أثارها كتابه هذا ، فطلبت إثر ذلك أن يمزق رسائلها إليه ففعل . ولما أخبرها جن جنونها . وبعد أيام عاد جبران إليها ، فواجهته بالحقيقة ، محاولـةً أن لا تعمِّق جراحه ، فقالت له : « انها تفكر بالزواج ، والزواج منه غير ممكن ، رغم العاطفة التي تشدها إليه ، أولاً بسبب تفاوت السن ، وثانياً لسوء وتفاقم أزمتهما المادية .

---

(١) جميل جبر ، **جبران في حياته العاصفة** ، مصدر سابق ، ص ٤٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٣ .   (٣) المصدر نفسه ، ص ٤٣ .

فهم جبران قصدها ، لكنه لم يشأ أن يفهم . حاول عبثاً أن يؤملها بفردوس الحب الموعود حين يبسم القدر لهما من جديد ، ولا بد أن يبسم بعد عبوسه الطويل »[١] وقال لها : « صدقيني يا جوزفين إني سوف أمنحك في يوم من الأيام قدر ما تمنحيني الآن . سوف أرد لك هذا العطف . سأرد لك كل ما تغمرينني به من حنان ، أنا بحاجة إليه في هذه الأيام السوداء»[٢]. كل هذه التوسلات ذهبت أدراج الرياح، لأن جوزفين كانت تعيش الواقع الموضوعي بكل تناقضاته . فانهيار وضعها الاقتصادي، وتهديد أسرتها بالتشرد دون مأوى، جعلاها تكبت الحب، وتسعى لإنقاذ أسرتها ونفسها من الغرق المحدق بهم . وفضّلت بدافع غريزة البقاء ، أن لا تنقاد إلى العاطفة ، التي لا تروي من ظمأ ولا تشبع من جوع في مثل هذا الواقع . وقرَّرت الزواج من رجل غني ينقذها من محنتها القاتمة . إلَّا أن جبران العاشق ، جبران الذي لم ينمُ جناحاه كليًّاً ليطير في فضاء الوجود، انتهج أسلوباً جديداً من المناورة، علَّه يرأب الصدع بين القلبين ، ويعيد الحبيبة إلى كنف الحب وفردوسه ، فأخذ يغدق عليها الهدايا ، بغية إغرائها ، لفتح أبواب قلبها التي أقفلها الفقر في وجهه . فقدَّم لها خاتماً نحاسياً . يحمل في رأسه حجراً أزرق. ولكي يعبِّر لها عن أهمية هذا الخاتم المعنوية ، لتغطية بخس ثمنه مادياً ، قال لها :

« انه أعز ما أملك في هذا الوجود يا جوزفين ، أحمل هذا الخاتم من يوم عمادتي . عمر هذا الخاتم مئات السنين . كان في إصبع تمثال العذراء في كنيسة بشري . يوم عمادتي أخذه جدي الخوري اسطفان ووضعه في اصبعي، وقال لأمي: هذا الخاتم سوف يحرسه...وهذا كل

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٧ .

(٢) انطوان فرنسيس ، جبران العاشق ، بيروت ، **الشبكة** ، العدد ١٤١٩ .

ما بقي لي من جدي ومن أمي أمنحك إياه يا جوزفين فاقبليه مني »[1] .

لم ييأس جبران من هذا الصدود ، فاستمر يزورها شاكياً معاتباً ، واستمر يكتب إليها ، علَّه يستعيد فردوسه المفقود ، حتى أنه لاذ بصديقه داي يبثه شجونه ، ولم يجد داي وسيلة إلى شدّ عزيمة جبران . لأنه كان على علم بعلاقة جوزفين وليونيل ماركس . وعندما انكشف الأمر لجبران ، تصدَّعت ذاته ، « وعانى من عقدة التبخيس التي أضعفت الإيمان بقدرات اناه ، فعاودته عقدة الغنى والفقر التي تلظّى بنارها أيام طفولته في بيت الوقف ، بعد مصادرة بيتهم ، وأثناء مراهقته أثناء وجوده في لبنان مع حلا الضاهر »[2] . ومن أثر الصدمة ، لم يحضر جبران زفاف جوزفين وليونيل ، حتى أنه لم يرسل إليها هدية . وعندما سافرت إلى أوروبا مع زوجها استمرت تراسله في صيف ١٩٠٦ وشتاء ١٩٠٧ ، إلا أنه لم يكتب لها جواباً واحداً . إنما جوزفين الوفية ، التي اقلعت عن التفكير به كشريك حياة، استمرت تتباهى به صديقاً خلّاقاً، وتفتخر برسومه التي كانت هي الموحية لها . في إحدى الليالي ، كان جبران محاطاً بنار الجوى التي تحرق روحه ، أخذ يناجي ذكريات ماضيه : جوزفين ، حلا ، وسلطانة ثابت - هذا الفردوس المفقود ، المثلث في ذات واحدة . فكتب مناجاة لحبيبته البعيدة التي تفصله عنها البحار السبعة، فقال في مناجاته :

« هل تذكرين ليالي جمعتنا وشعاع نفسك يحيط بنا كالهالة ، وملائكة الحب تطوف حولنا مترنمة بأعمال الروح ؟ . هل تذكرين أيام جلسنا بظل الأغصان وهي مخيِّمة علينا كأنها تريد أن تحجبنا عن البشر مثلما تحجب الضلوع أسرار القلب المقدسة ؟ هل تذكرين ممرات ومنحدرات مشينا عليها ، وأصابعك محبوكة بأصابعي إحتباك

---

(١) خريستو نجم ، **المرأة في حياة جبران** ، بيروت ، دار الانشاء ، ١٩٨٣ ، ص ٨٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٣ .

ضفائرك ، وقد اسندنا رأسينا برأسينا كأننا نحتمي منا بنا ؟ .

أين أنتِ الآن يا رفيقتي ؟.

هل أنت ساهرة في سكينة الليل نسيماً أحمِّله دقات قلبي وخفايا جوارحي ، كلما هب نحوك ؟.

أو أنت ناظرة رسم فتاكِ ؟.

ذاك رسم لم يعد ينطبق على مرسومه . فالحزن قد ألقى خياله على جبهة كانت بالأمس منفرجة بقربك.

والنواح أذبل أجفاناً كانت مكحولة بجمالك.

والوجد جفف ثغراً كان مرطباً بقبلاتك.

أين أنت يا حبيبتي ؟.

هل أنت سامعة من وراء البحار ندائي وانتحابي ؟ .

... آه ما أعظم الحب وما أصغرني ! »[1] .

بعد هذه الصدمة العاطفية القاسية . أصبح جبران بحاجة ماسة إلى ترميم نفسه المتهدمة ، وإثبات ذاته مجدداً ، التي أصيبت بجرح « نرجسي » أخذت تنزف في صميمها.

يرى البعض أن جوزفين بيبودي كانت غير جديرة بهذا الحب الكبير ، وخائنة . إلاَّ أننا بعد أن سبرنا كُنه العلاقة التي كانت قائمة ، وحقيقة الواقع الموضوعي الذي كانت تعيش في خضمِّه ، لا نشك بأنها كانت البلسم لجراح جبران ، وهي التي ساهمت مساهمة فعّالة في تكوين مزاجه الفني ، بنشاطات فنية متنوعة من شعر ورسم وموسيقى ، وهي التي أخرجته من سويدائه القاتمة إلى أجوائها الزاهية . إلا أنها ما كانت « غير تلك الأم التي عوَّضته شيئاً من حنان أخيه وبعضاً من عطف أمه . لقد اختصرت جوزفين كل ملامح الأمومة ، عندما أخذت بيد المراهق الغريب ، وسدَّدت خطاه في معارض الرسم وأمسيات الشعر ،

---

(١) جميل جبر ، **جبران في حياته العاصفة** ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٤ .

وشنفت أذنيه بعزفها وعزف الفرق الموسيقية ، وهذّبت ذوقه بحضور حفلات الرقص والتمثيل »[١] وجبران لم يكن عند جوزفين فارس الأحلام ، والحبيب المنتظر ، إنما كان بالنسبة لها ، كما قالت : إنه إحدى نعاج الرب الذي منحني نعمة العناية بها بين الحين والآخر.

* * *

حلا الضاهر

حلا الضاهر وهي المرأة الأولى ، فعلياً وواقعياً ، في حياة جبران ؛ هي الحب الأول الذي نبض له قلب جبران البكر . لأنه عندما عاد إلى لبنان من بوسطن ، كانت معرفته بجوزفين بيبودي معرفة سطحية ، يلفها الضباب.

ففي خريف عام ١٨٩٨ ، وأثناء وجوده في بلده ، وهو في طريقه من بشري إلى بيروت للالتحاق بالمدرسة ، التقى في طريقه بفتاة تفيض سحراً وجمالاً ورقة . فكانت هذه الفتاة حلا الضاهر ، إبنة الحسب والنسب والجاه والسلطة . وقع نظره عليها وهي تتناهى حلاوة ورشاقة . فحياها وتواعدا على لقاء ، بعد أن تعارفا.

وبدأ جبران يزور حلا في منزلها ، وعندما آنست بحديثه الشيق ، أصبح يتحين غياب أهلها عن البيت ، ليأتي إليها ويسكب في أذنيها عبارات الهوى والعشق . حتى هاما ببعضهما البعض . وامتلأ قلباهما من عصارة الحب المقدسة ، وتعانقت روحاهما العناق الإلهي . وفي نهاية أيلول ، والواجب يقضي على جبران الالتحاق بالمدرسة ، تعاهدا على أن يكتبا لبعضهما . وكان جبران يبعث رسائله إلى حلا بواسطة صديقتها مرون عواد . وأولى رسائله إليها كانت قصيدة منظومة.

حلا الضاهر ، إبنة الاقطاعي ، فتحت قلبها لنسائم الحب ،

---

(١) خريستو نجم ، **المرأة في حياة جبران** ، مصدر سبق ذكره ، ص ٨٠ .

وأسلمت روحها وكيانها لنداء المحبة ، حتى باتت تشعر بأن الحبيب جبران هو مكمل حياتها وسعادتها وآمالها وأمانيها؛ هو الفارس، القادم من البعيد، ليحملها على صهوة جواده، إلى جنّة السعادة. ففي أحد الأيام، سمعتها شقيقتها سعيدة تقول لجبران: «نحن كإجاصة قسّمت إلى إثنين .فلو قسمت قسماً من أية ثمرة غير الإجاصة، وحاولت ضمّه إلى أحد قسمي إجاصتنا ، فمن العبث أن يلتقيا . إن نصف الإجاصة لن يكتمل إلا بنصفها الآخر . وهكذا أنت وأنا يا جبران »[1].

واستمر الحبيبان يترعان من كأس الحب الصافية ، ويسكران من خمرته المعتقة ، دون أن يعكر صفوهما معكّر ، حتى عام ١٨٩٩ وهو الصيف الثاني والأخير الذي يقضيه جبران في بشري ، بسبب الخلافات المتكررة مع والده المتسلط.

في ذلك العام، أدرك اسكندر الضاهر، شقيق حلا، أن العلاقة بين حلا وجبران تخطت حدود الصداقة ، وتعمّقت حتى باتت تشكل خطراً على سمعة البيت الاقطاعي العريق . وكبر الأمر عنده وصعب عليه « أنّ أخته تعشق إبن ملتزم ضريبة الماعز . وأول اجراء اتخذه اسكندر أنه منع أخته حلا من استقبال جبران أو اللقاء به . ولما تناهى الأمر إلى جبران ، وأدرك الخطر المحدق بحبه ، اقترح على حلا أن تهرب معه ليتزوجا بعيداً عن أعين الحسّاد والفضوليين . إلا أن حلا ابتسمت إبتسامة جريحة وأجابته « إن قطفت الثمرة فجة يا جبران ، آلمت الشجرة ولم تفد من الثمرة . أما إذا اينعت فهي تسقط من تلقائها »[2].

وبسبب خشيتها من نقمة أخيها . امتنعت عن استقبال جبران في دارها المنيف ، واتفقا معاً على الالتقاء اسبوعياً في غابة دير مار

---

(١) رياض حنين ، **الوجه الآخر لجبران** ، بيروت ، دار النهار للنشر ، ١٩٨١ ، ص ١٠ .

(٢) جميل جبر ، **جبران في حياته العاصفة** ، مصدر سابق ، ص ٣٥ .

سركيس ، يبثان في قلبيهما كلمات الاشتياق . وفي لقاء حار ، في صفاء الطبيعة الجميلة ، قال جبران لحلا :

« أظنك يا حبيبتي تؤثرين القصر على حياة الكوخ ، ولسوف أبني لك قصراً ههنا بعد أن أعود من أميركا . فأجابته ببراءة وبساطة وتواضع : كل كوخ يا حبيبي يصبح قصراً متى عشنا فيه معاً »[١].

كان هذا الحب بمثابة الرعود التي تفجر الينابيع من بطن الأرض لتروي الانسان والحقول . وحلا الضاهر وحبها البكر كانت الحافز لعبقرية جبران وموهبته ، وألهمته الكثير من نتاجه الفني والأدبي . فقبل القطيعة القسرية التي فرضها عليهما اسكندر الضاهر ، والمتمثلة بوقف زياراته إلى بيت الضاهر . دخل جبران مرَّة إلى منزل حلا ، « وكان عندهم بعض الأنسباء من حصرون ، فوجدها تبكي . سألها عن السبب ، فتكلفت الابتسامة وأجابته : إن الحياة دمعة وابتسامة يا جبران . فسُرَّ لهذا الجواب وقال لها . غداً سأضع كتاباً بعنوان **دمعة وابتسامة**»[٢].

وفي صيفه الأخير في لبنان عام ١٩٠٢ ، لم يتسنَ له أن يجتمع بحلا إلاَّ مرتين . لأن جوعه للحب بذاته أكبر وأعمق من رغبته بالحبيب وشخصه . وأثناء وجوده في بيروت ، هام بحب سلطانة ثابت ، هذه الأرملة الحزينة . وهذا الهيام أنساه القلب الذي يتفطر لفراقه والموجود في بشري يتلظى بنار الجوى الحارقة التي عجزت الدموع الحرَّى عن اطفائها . ولكنه لما رآها مجدداً ، « تواصل الحوار الودي بينهما وكأنه لم ينقطع »[٣] . وقبل عودته الأخيرة إلى بيروت ، تمهيداً للسفر التقيا في غابة مار سركيس اللقاء الوداعي الأخير . وخلال اللقاء « أهداها

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) رياض حنين ، **الوجه الآخر لجبران** ، مصدر سابق ، ص ١١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٠ .

خاتماً ثميناً ، وقارورة فيها قطرات من دموعه ، وخصلة من شعره ، وترك لها عصاه التي كان دوماً يحملها »[1] .

وتقول سعيدة الضاهر أخت حلا: ان حلا ظلّت تحتفظ بهذه التذكارات إلى آخر أيام حياتها ، كأعز أثر من أعز حبيب. وبقيت حلا عانساً لم تتزوج. وماتت عمياء في منتصف عام ١٩٥٥ . وظل حبها لجبران مشتعلاً في قلبها ، حتى ضمتها ظلمة اللحد الباردة ، وبعد عودته إلى نيويورك رسمها جبران عن ظهر قلب .

وهذا الحب ، أوحى لجبران بكتابة قصة **الأجنحة المتكسرة** التي قال عنها ، في الكتاب نفسه : « سلمى كرامي ـ وهذا هو الإسم الرمزي لحلا الضاهر ـ هي التي علمتني عبادة الجمال بجمالها وأرتني خفايا الحب بانعطافها ، وهي التي أنشدت على مسمعي ، أول بيت من قصيدة الحياة المعنوية.

لكل فتى سلمى تظهر على حين غفلة في ربيع حياته ، وتجعل لانفراده معنى شعرياً ، وتبدل وحشة أيامه بالأنس ، وسكينة لياليه بالأنغام.

كنت حائراً بين تأثيرات الطبيعة وموحيات الكتب والأسفار ، عندما سمعت الحب يهمس بشفتي سلمى في أذن نفسي . وكانت حياتي خالية مقفرة باردة شبيهة بسبات آدم في الفردوس عندما رأيت سلمى منتصبة أمامي كعمود نور» . فسلمى كرامي هي حواء هذا القلب المملوء بالأسرار والعجائب ، وهي التي أفهمته كنه هذا الوجود وأوقفته كالمرآة أمام هذه الأشياء.

ولكن جبران تنكّر لهذا الإعتراف ، وبهذا التنكر يكون قد خان الحب الكبير الذي أحبته حلا الضاهر ، ووهبته قلبها متحدية

---

(١) المصدر نفسه .

التقاليد والأهل والشرائع : تنكر كما تنكر يهوذا الأسخريوطي للمسيح .
فعندما صدرت **الأجنحة المتكسّرة** سألته ماري هاسكل عن مضمونها وعن حقيقة سلمى كرامي ، فأجابها بأن أحداث هذه القصّة من نسج الخيال المبدع ، وأن سلمى كرامي فتاة وهمية لا وجود لها واقعياً .
ولكي يبعد الشبهة عنه أكثر فأكثر ويحمل ماري على التصديق قال لها ، أنه ركّب من أحرف اسمها إسم سلمى كرامي وكتب الاهداء لها ، وبذلك يكون جبران قد طعن حبه الأول بسهم الغدر والانكار . ومهما حاول أن يلقي على هذه التجربة العشقية التي مرَّ بها ضباب النسيان ، فالتاريخ له ذاكرة لا تنسى ، حيث ستبقى صورة هذا الحب راسخة فيها حتى اللانهاية.

***

سلطانة ثابت

إبان علاقته مع حلا الضاهر ، وبثه في مسامعها أجمل كلمات العشق والغرام ، وسكبه في أعماق قلبها خمرة الحب ، تعرَّف عام ١٩٠١ على أيوب ثابت ، وصار يزوره في بيته ببيروت ، وخلال الزيارات المتكررة أنس اخته سلطانة ، الأرملة ابنة الثانية والثلاثين من العمر ، وكانت جميلة الطلعة ، رائعة ، ذواقة للفن ، تقرض الشعر وتطرب لسماعه . ولم يمض وقت حتى عَلِق جبران بهواها ، وبدأ يتغزل بها ويبادلها الرسائل.

سلطانة ثابت سحرت جبران ، الفتى المراهق ، الذي لا يستقر له قرار من الناحية العاطفية . وقد أنسته إلى حين حلا الضاهر ، المنتظرة أوبته إلى بشري ، على أحر من الجمر. كما جسَّدت هذه المرأة أمام عينيه ، كما تقول ناهدة طويل في دراستها شخصية جبران دراسة نفسانية ، جسَّدت صورة أمه، ليس لتقارب السنّ بينهما ، بل لأنها كانت

أرملة . رأى فيها أمه التي فقدت زوجها الأول ، والتي مازالت في نظره أرملة ، نظراً لما عانته من التعاسة بعد زواجها الثاني ، خاصةً وأنها تركت زوجها وأثارت في نفس ابنها المتعلِّق بها شعوره العميق برفض أبيه وعدم التماهي معه ، أو الاقتداء به.

لقد أحب جبران هذه المرأة حباً لا يخلو من الرغبة الجنسية المكبوتة في داخله ، ومن الممكن أن تكون سلطانة قد وجدت بدورها في جبران تعويضاً عن الزوج المفقود.

ويقول جميل جبر إن رسائل جبران المحمومة كانت تلقى من سلطانة أجوبة باردة ، تكاد تكون غير شخصية . وانتهت هذه المغامرة العشقية بموت سلطانة الفجائي بعد أربعة أشهر من تعارفهما.

وذات يوم تسلَّم جبران من صديقه أيوب ثابت ، شقيق سلطانة ، ظرفاً انطوى على بعض الجواهر ، وعلى سبعَ عشرة رسالة مختومة ، موجَّهة منها إليه . وبعد أن فضَّها وقرأ كلماتها ، تبين له أن البرودة الظاهرية التي كانت تقابل بها رسائله ، كانت غطاءً تخفي وراءه حباً عنيفاً ، وعذاباً دفيناً . وفي إحدى جلسات الاعتراف أمام ماري هاسكل قال جبران : لو علمت كنه الرسائل التي كتبتها سلطانة ، ولم تجد الجرأة على ارسالها لي ، لكان مجرى حياتي قد تغيَّر كلياً . إنها إنسانة عاشت للحب وماتت حسرَةً عليه .

هذا هو جبران الذي كان يسكب آيات الحب في كأس حلَا الضاهر في بشري ، ويسكب الآيات نفسها في أذني سلطانة ثابت في بيروت . وهذا التناقض استمر يشكل السِمَة الرئيسية طيلة حياته العاطفية وعلاقاته النسائية . والفصول التالية ستكشف لنا أبعادها وكيفياتها وحيثياتها .

***

ماري هاسكل

- ١ -

عندما قال جبران « أنا مدين بكل ما هو أنا ، للمرأة » وهو يعني بذلك أمه التي زرعت في نفسه بذور الطموح ، ثم أخته مريانا التي تكرست بكليتها لخدمته والسهر على راحته ، وساعدته بإبرتها أيام العسر ، وبعد الأم والأخت ، كانت الصديقات ـ الحبيبات ، « وخاصة الأميركيات اللواتي كن أكثر عدداً وأشد تأثيراً في حياته من صديقاته اللبنانيات ، لأنهنّ نخبة من ذوات الثقافة الجامعية ، والنفوذ الأدبي والاجتماعي ، حيث أسهمن في تكوين شخصيته وتوجيهه الفني والكتابي ، بصورة تتضاءل إلى جانبها التوجيهات التي لقيها من أصدقائه الرجال»[١]. وفي طليعة هؤلاء النسوة تأتي ماري اليزابيت هاسكل ، المرأة التي كان لها أكبر شأن في حياته بكليتها النفسية والفكرية ، الاجتماعية والجنسية ، ولم يكن لسواها مثله خاصةً من حيث طول الزمن الذي عرفته فيه ، والعون الكبير الذي أسدته له ، فهي التي رافقته في رحلة العمر التي امتدت منذ عامه الحادي والعشرين حتى وفاته.

ففي عام ١٩٠٤ ، وفي أوج أزمته ، التي خلفتها له جوزفين بيبودي ، بهجرانها له ، وزواجها من صديق ماري هاسكل الحميم قبل جبران ليونيل ماركس ، وفي العاشر من أيار أقام جبران معرضاً لرسومه في محترف المصور فريد هولند داي، وقبل انتهاء المعرض بيوم واحد ، جمع القدر بين جبران وماري هاسكل ، ابنة الحادية والثلاثين . والحال أن ماري استعاضت بجبران ورأت فيه المنقذ من أزمتها النفسية بعد خيانة ماركس لها ، وجبران وجد فيها المنقذة بعد خيانة جوزفين

---

(١) روز غريب ، جبران في أميركا ، بيروت ، **النهار** ، ١٩٨٦/٧/١٠ .

له . وكردة فعل انتقامية على موقف جوزفين وماركس الخياني ، اتحد جبران وماري لا إرادياً ليشكلا ثنائياً مناقضاً للأول . وفي هذا الاتحاد أخذت ماري مكان جوزفين لدى جبران ، وجبران مكان ماركس لدى ماري . كما استعاضت جوزفين بماركس عن جبران ، وماركس استعاض بجوزفين عن ماري.

ماري هاسكل ابنة رئيس مصرف ، ومتقاعد بارز في الجيش الاتحادي . وُلِدَت في ١١ كانون الأول من العام ١٨٧٣ في مدينة كولومبيا ، من ولاية ساوث كارولينا . وأثناء تعرّفها على جبران الذي تكبره بعشر سنوات ، كانت تدير مدرسة « هاسكل ـ دين » الداخلية للبنات . وهذه المدرسة أنشأتها هي وشقيقتها في بوسطن عام ١٨٩٧.

وخلال زيارة ماري هاسكل للمعرض ، التقت بجبران الذي بدأ يشرح لها نظريته الفنية التي كان يحاول التعبير عنها برسومه . وشيء خفي بجبران أخذ بلب ماري . وبعد انتهاء المعرض ، طلبت ماري من جبران أن يعلِّق رسومه في مدرستها . وهناك تعرَّف جبران على المعلمة إملي ميشال، المعروفة باسم ميشلين (انظر الفقرة الخاصة بها). وعرض الرسوم في مدرسة « هاسكل ـ دين » عمّق الصلة والتقارب بين جبران وماري . وبدأ جبران يزور ماري مرتين في الاسبوع مساء الأربعاء والجمعة . ومنذ ذلك الحين توطّدت العلاقة التي تحطمت على أعتابها كل العواصف التي اعترضتها ، واستمرت بين مدٍ وجزر شكلياً ، وتتجذر أكثر فأكثر ضمنياً ، حتى انتقال جبران إلى ما وراء الأفق الأزرق.

وفي عام ١٩٠٤ ، لمعت في بال ماري فكرة إرسال جبران إلى باريس لدراسة فن الرسم وقواعده وأصوله في معاهدها وعلى أيدي كبار رساميها . وبعد مدّة وجيزة تقدمت من جبران وعرضت عليه الفكرة ، متعهدةً بتأمين نفقاته طيلة مدة دراسته ، وبمدِّه بخمسة وسبعين دولاراً شهرياً . واستمرا يدرسان هذا المشروع حتى ١٢ حزيران من العام

١٩٠٨ . هذا التاريخ كان موعد وصوله إلى العاصمة الفرنسية.

وكان جبران ، منذ تعرُّفه على ماري هاسكل ، قد وَجَد فيها اليد المنقذة له من محنته ومن أزمته النفسية التي خلَّفتها جوزفين بيبودي . ومع مَطلع عام ١٩٠٧ حمل إليها مجموعته القصصية الأولى **عرائس المروج** ، مهداة إليها حيث كتب « مع حب طفل قوي إلى ماري اليزابيت هاسكل » . ولعله نظر إليها يومئذٍ كبديل عن أمه الحقيقية ، وعن أم أحلامه الضائعة جوزفين.

إن ماري ، ابنة البلد الذي وفد عليه جبران ، وابنة اللغة التي راح يكتشف مجاهلها ويسبر كنهها ، والتي تكبره بعشر سنين ، لم تكن مجرد عون له ، خلقياً ومالياً وعملياً ، وفي سائر شؤون حياته الصغيرة ، و « إنما كانت التلميذة الوفية له ، والحوارية المؤمنة به باخلاص ، والمشجعة له على الدوام بكل ما أوتيت من سبل »[١] . وكان نقدها الفني لرسومه وتعليقاتها عليها ذات فائدة . غير أن فضل ماري عليه في هذا المضمار لم يكن في الفن ، بقدر ما كان في الكتابة . فكتبه وأعماله الانكليزية العديدة ، لم تكن تصل إلى أيدي الناشرين أو محرِّري المجلات قبل أن تمر على يديها هي . وجبران كان يعي ويقدِّر هذه التضحية ، فكتب لها في ٢ تشرين الأول ١٩٠٨ يقول : « آمل بأن تطول بي الأيام ، فأتمكن من إنجاز ما يستحق أن أقدمه لك أنتِ التي تقدمين لي الكثير . وآمل أيضاً أن يأتي اليوم الذي يمكنني القول فيه ها إني صرت فنَّاناً بفضل ماري هاسكل » . ولم تكن هذه الكلمات مجاملة أو تزلفاً لاستدرار عطفها ، إنما كانت كلمات صادقة نابعة من أعماقه ، ففي ١٢ شباط من العام نفسه كتب إلى صديقه أمين الغريب يقول : «إنما وجودي في بوسطن مرتبط بحضور ملاك يشبه إمرأة يقودني نحو مستقبل زاهر ويمهِّد لي الطريق نحو النجاح الأدبي والمادي ».

---

(١) توفيق صايغ ، **اضواء جديدة على جبران** ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٩ .

وأثناء وجوده في باريس ، كانت الرسائل المتبادلة ، صلة الوصل بين الإثنين ، وها هو جبران يكشف أهمية هذه الرسائل بالنسبة لسعادته الروحية، والتي شكلت القوّة التي تطرد عنه وحشة الغربة والانفراد ، فقال في ٨ تشرين الثاني ١٩٠٨ :

« حين تطل ساعات الكدر ، أطالع رسائلك يا ماري . وعندما يلف الضباب الـ «أنا» آخذ من العلبة الصغيرة رسالتين أو ثلاثاً وأعيد قراءتها . فرسائلك تذكرني بذاتي الحقيقية ، وتجعلني أتخطى كل ما ليس سامياً وجميلاً في الحياة ».

وبعد حين قال « أنتِ تسيرين معي في وحدتي . وفي المساء تجلسين قبالتي على المائدة وتحدثيني أثناء عملي . ولكن تطرأ علي أوقات أشعر فيها وكأنك لست هنا على الأرض ».

وفي يومياتها ، كتبت ماري بتاريخ ١٧ نيسان ١٩١١ مخاطبةً جبران قائلة : « أفكر مراراً إني أسمع همسات الكائن الذي يرشدك وهو يخاطبني بشأنك » فأجابها « وأنا أفكر غالباً أنتِ ، **أنت هي** ، ذلك الكائن يا ماري »[(١)] . أصبحت ماري بالنسبة لجبران قدره . فكتب لها رسالة في ١٠ شباط عام ١٩١٢ قال فيها « أخاطبك يا ماري كما أود مخاطبة قلبي أنا . أنتِ وقدري لا تفترقان ... وماذا لدى المرء ليخفيه عن قدره ؟ » فردت عليه : أنت الذي أجده دائماً كلما انطويت على نفسي ، فأنت لن تتسلل من حول قلبي ، أكثر ما يستطيع سواري التسلل من معصمي.

انتقل جبران من بوسطن إلى نيويورك في نيسان عام ١٩١١، وابتعد عن ملاكه الحارس ماري هاسكل ، بالجسد وليس بالروح . فلما أعلمها خلال شهر شباط بأنه مريض ، قلقت عليه وانتابتها التعاسة . وكتبت له رسالة في ١٥ شباط ١٩١٢ « أريد التأكد إذا كنتَ لا تزال

---

(١) ماري هاسكل ، **نبي الحبيب** ، مصدر سابق ، الجزء الأول ، ص ٤٣ .

مريضاً ، لأنك تعلم انك كنت بالأمس كنزي » . و « حيث يكـون كنزك يكون قلبك أيضاً . وأنك اليوم كنزي ، وانك ستكون كنزي ليوم غدٍ » وقالت له : « لم لا تطول ذراعاك ست ساعات كي تصلا إلى بوسطن ؟ وعلى أية أنسجة قديمة كنت ترسم ؟ ومتى ستأتي إليّ في حُلم يجعل الليل أحلى من الليل ؟»[1] . وفي كل يوم كانت تفتح له نافذة جديدة يطل منها على عوالم جديدة ، وفضاءات رحبة جديدة ، حتى أنها كانت غذاء لعقله . فقال في ١٩ آب ١٩١٢ : « عندما تتكلمين عن أشياء عاديـة ، أسمع عصفوراً في الفردوس ، وعقب مرور أيام أسمع نداء عوالم جديدة للتحليق ، وعوالم جديدة تنفتح أمـامي »[2] .

- ٢ -

بعد أن عاد جبران إلى بوسطن في ٣١ تشرين الأول ١٩١٠ ، قادماً من باريس ، ترك أمتعته عند شقيقتـه مريـانا وهـرع إلى بيت الحبيبة ماري ليزورها ، ويكحل عينيه بمرأى ملاكـه الحارس . وبعـد عودته ، استمرت ماري على تعهدها في مدّه بـالمال شـهريـاً .

وفي ١ أيلول ١٩١٢ . مرَّت علاقتهما بأزمة طارئة ، سببها المال . كـان في رأي مـاري أن المـال هـو أسـاس الـرابطـة بينهـا وبينـه، والصحيح أن هذه الرابطة جعلت علاقة المال ممكنة . وقالت : إلا اني قلبت المفاهيم ، ومن غير انصاف مني له ، فقد اتهمته بمبادلة صداقته بالمال ، وأنه لولا المال لما صادقني ، كأن المال أوَّل وآخر شيء يعنيه جبران في بناء صداقته . وتكفيراً عن ظنونها السيئة به كتبت تسترضيه لجرحها كرامته وتستغفر زلتها ، فقالت : « يا جبران ، إذا أزعجتك مرّة أخرى ، كإزعاجي هذا بقضايا المال ، فانبذني نهائيـاً . لقد أعطيتني

(١) المصدر نفسه ، ص ٨١ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١١٠ .

فرصاً كافية ، فإذا كنت من الغباء وقلة الشعور بحيث أسيء إليك ، فالأجدر بك ألا تثبت على عهودك معي. فلِمَ تتحمل هذا الازعاج؟ أنا لا أستحق ذلك ولن أشكو إذا ما قلت لي ، فأنا أعرف العدل عندما أراه وأعرف الرحمة كذلك حين تظهر لي »(١) . كانت هذه الكلمات بمثابة البلسم للجرح الذي أصاب كرامة جبران، فغفر لها. وعندما زارها في ٣١ كانون الأول ١٩١٢ ، عرضت عليه مبلغاً من المال كانت جمعته من المدرسة في آخر السنة الدراسية وقدره ١٢٠٠ دولار . فقال لها جبران قبل أن يأخذ المبلغ : « هل عطاؤك المال يزيدك نمواً يا ماري ؟ » فأجابته « نعم ، وأكثر من أي عمل آتيه في حياتي » . فابتسم جبران وقال « جيد جداً » وأخذ المال منها.

هذا الجانب من العلاقة بين جبران وماري ، واسلوب جبران البارع الذكاء في استدرار عطف وإحسان ماري ، تركت غير علامة استفهام حول مصداقية جبران في علاقته بها . فصديقه عبد المسيح حدّاد رأى أن علاقة ماري بجبران ، لم تتعد علاقة محسنة بفنان موهوب . وتوفيق صايغ أكّد أن هذه الصلة المادية بينهما ، والتي كانت مسؤولة عن نواح كثيرة جميلة وخلاقة في هذه العلاقة ، كانت أيضاً مسؤولة عن بعض النواحي المرَّة في تلك العلاقة . في حين أبدى ميخائيل نعيمة شكوكه حيال طلب جبران الزواج من ماري قائلاً أن سببه الطمع المادي . إلاّ أن طنسي زكّا يغالي كثيراً في حبه لجبران ، فيرد على شكوك نعيمة بقوله : « إذا ما صدقنا المذكرات والرسائل ، وهي من أغزر وأهم الوثائق الشخصية فهي تنفي عن جبران تهمة الطمع المادي الذي دفعه إلى طلب الزواج من ماري هاسكل ، بل ان وراء طلب الزواج ، إعجاب جبران بماري ، واستساغته لها . لا بل هنالك حبٌّ عنيف كالعبادة من جانب ماري على الأقل ، قد يتأثر جبران به ، وهو

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٩٤ .

المرهف الاحساس ، فيدفعه تأثره إلى طلب الزواج . ونحن نرى أن نعيمة يُناقض نفسه عندما يصوّر ضغط الحاجة على جبران الذي انبثق منه التفكير بالزواج »[1].

إن زكّا الذي يتهم نعيمة بالتناقض ، يقع بدوره في تناقض أخطر . وهذا التناقض يصب في طاحونة نعيمة ويدعم شكوكه ، وذلك عندما قال: « هنالك حب عنيف كالعبادة من جانب ماري على الأقل » هذا القول ينفي عن جبران حبَّه الروحي لماري . ألم يتمنَ جبران لو كانت ماري بجمال ميشلين وجاذبية جوزفين ؟ أليس هذا التمني دليل على أن ماري ليست هي الحبيبة التي ينشد ، جسدياً وروحياً ؟.

فجبران الذي أدرك أن سحره فعل فعله في ماري ، أخذ يلقي عليها الكلمات الحلوة التي تشبع نفسها ، وتخلق في أعماقها حوافز للتعويض عن هذا الإشباع ، فلم تجد غير المال والتضحية سبيلاً إلى ذلك . وتذكر ماري هاسكل في يومياتها بتاريخ ١٠ كانون الثاني ١٩١٤ ، أن جبران قال لها : « أريد أن أسلك وإياك يا ماري ، سلوك سيقان الأعشاب في تمايلها مع الريح ، أي أن أتحدث بدوافع اللحظة الحاضرة ، وذلك ما أفعل بالواقع » ، فأجابته بأن نهجه المذكور هو غاية سرورها ، وهو في نظرها أسمى دَرَجة يشرِّف بها رجل امرأة : أن يكون متحرراً مع نفسه وإياها.

وتمكن جبران من خلق عقدة ذنب لدى ماري ، وشعوراً بدونيتها أمام جبروته . وبدافع ذلك ، بدأت تبخس عطاءها له ، وتغالي بتعظيم عطائه السرابي لها . ففي رسالتها اليه في ٤ شباط ١٩١٤ قالت له : « أنت تتهمني بالعطاء الدائم ، ولم أعلم جيداً لِمَ « أنت » لا تعطي « دائماً » . لقد وهبتني آلافاً من نبضات عطائك . لقد وفيتها أنت ، وأنا قبّلتها في قلبي ، وقبّلتها ، ثم قبّلتها . وهذه هي الأمور التي أحرص

---

(١) طنسي زكا ، **جبران ونعيمة** ، بيروت ، مكتبة المعارف ، ١٩٧٩ ، ص ١٧٩

عليها يا خليل . لقد اغنيتني من الداخل »[١].

وفي لحظة من يقظة الضمير ، يعترف جبران بمكنونات نفسه ، ويقول لها في نيسان من العام ١٩١٤ : « أنتِ وهبتني الحياة . لقد وهبتني الحياة بمعناها الحرفي . ولو لم تهبيني الحياة لما قويت على العيش . وكم من انسان قضى نحبه لافتقاره إلى معين مثلك ينقذه . وليس السر في المال وحسب ، بل في طريقة إعطائك إياه ، في الحب والإيمان اللذين أعطيتهما معه . وبمعرفة أن هناك انساناً يعتني بي ، يأخذني العجب أحياناً هل في التاريخ انسان اعتنى بآخر كعنايتك بي ؟؟»[٢] . وأضاف : « أعطيتني عطاءً مجيداً . فكان من واجبي قبوله قبولًا مجيداً ... أما الآن فبوسعك إعطائي المال بدون حرج وبوسعك الامتناع ». إن جبران كان يدرك بوعي ثاقب مَدَى تأثيره على ماري . وهذا ما حدَاه إلى أن يساوي بين العطاء والقبول ، مقتنعاً بأنها ستقدر ذلك وتقدسه ، ولكن في أي زمن وفي أي منطق يتساوى العطاء في مجده ، مع القبول ؟.

بعد أن كانت ماري تمثل دور الأُم بالنسبة لجبران ، تحولت لتمثل دور التابع للمتبوع ، والعبد للسيد . وتعترف هي بذاتها بهذا الدور الجديد الذي بدأت تمثله في حياة جبران ، وذلك عندما قالت له في رسالة مؤرخة بتاريخ ١٦ آب ١٩١٤ : « أشعر أحياناً يا جبران ، ان لي جناحين صغيرين ثابتين ، وأنت لك جناحان جباران منتشران . وغالباً عندما تبسطهما للطيران أضمْ أنا إليهما جناحيَّ الصغيرين فأحصل على كل قوتهما في التحليق معك »[٣].

وجبران لم يترك فرصة تفوته ، إلاَّ ويستغلها خير استغلال ،

---

(١) ماري هاسكل ، **نبي الحبيب** ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الثاني ، ص ١٨
(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٥ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٤ .

ليحمِّل ماري تبعة ما يعكّر صفو علاقتهما ، لتبقى دوماً تشعر بالذنب حياله. وبَدل أن تكون هي الضحية ، كان يشعرها بطرق متنوعة بأنها هي الجزار . ففي ١٠ نيسان ١٩١٥ ، قال لها : « عندما رجعتُ من باريس، وهبتك قلبي ببساطة وصراحة وتمام. لقد كنت معك كالطفل، جعلت بين يديكِ كل ما كنت وكل ما ملكت ، وقابلتني أنتِ بالبرودة والحذر»[١]. وبعد حين عاد يردِّد على مسمعها ويذكّرها ببعض المواقف السلبية التي أُجبرت على اتخاذها . ولعل أكثر ما سبَّب له الغم هو الحديث الذي دار بينهما وهو، حسب قول ماري، الحديث الذي دار في أعقاب زيارة شقيقها آدم وزوجته . والظاهر أن ماري انتقدت مظهر جبران الخارجي أمامهما ، وقولها بأن قصر قامته قد يكون الحائل دون تقدير نوع معين من السيدات الأميركيات له . إلّا أن سحر جبران عليها يخدرها مجدَّداً ، فتكتب له في أواخر تموز من العام ١٩١٥ :

« لم أدعك مرَّة تكون نفسك. أجل، قلت إني أريد لك التصرّف بملء الحرية معي ، وكلما تصرفت كنت ألطمك . لقد كنت وإياك كإنسان في قاعة مظلمة ، يلقي كل محتوياتها على الأرض . فالقاعة **كانت** أنتَ ، ومحتوياتها كانت ألطف ما في النفس من شعور واحساس »[٢].

كيف يقول لها إنه وهبها قلبه ببساطة وصراحة وتمام ، وفي الوقت نفسه كان يبث لواعج الجوى والحب في أُذني ميشلين ، وشارلوت تيلر ، وغيرهما ؟

كيف يقول لها إنه لم يكن في حياته قريباً من إنسان ، من رجل أو امرأة ، جزءاً من مئة مما هو قريب منها ، وفي الوقت نفسه كان يقول لميشلين « لقد ملكتِ عليّ مشاعري ومفاتيح خيالي » ؟

كيف يقول لها : « إذا كان بوسعي حب نساء أخريات ، فإن لدي

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٩٠ .
(٢) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠٨ .

الكثير من الفرص . لقد التقيت بالكثيرات في بوسطن وفي باريس ، ولكن بيني وبينك قرابة . فالتشابه جوهري بيننا . أريدك أن تتذكري دائماً ما يلي : إنك أعز شخص إليَّ في الدنيا »[1] وهو يردّد على مَسمَع مي زيادة بالوقت نفسه : « لا تخافي الحب يا ماري ، لا تخافي الحب يا رفيقة قلبي . علينا أن نستسلم إليه ».

إن دقائق العلاقة بين جبران وماري هاسكل أرتنا أنه كان يجرّب باستمرار عليها « الآراء المختلفة التي سينثرها في مؤلفاته قبل أن يكتبها ، وقبل أن يعتنقها تمام الاعتناق . إننا نجد ماري هنا « التلميذة » الحقة . تلتقط الحبوب والبذور دوماً من فتاته ... لكنها لا تكتفي بذلك ، بل هي تضع البذور والحبوب لكي ينميها هو ، فتلتقطها هي »[2] . إن علاقة جبران بماري هاسكل شبيهة بعلاقة جورج صاند وألفريد دي موسيه .وكجبران كان دي موسيه يغدق على صاند الوعود المعنوية ، حتى أنه قال لها يوماً « لا عليك يا جورج لأنني سأكتب قصَّتنا وأنصفك . سوف أبني لك هيكلاً بعظامي ، لأنك صنعتِ من طفل غرِّير رجلاً ... فكوني فخورة يا صديقتي الكبيرة ويا سيدتي الباسلة »[3] . لكن دي موسيه كان أكثر وفاءً وصدقاً في حبِّه لصاند من جبران لماري . فالأول بقي وفياً ، ولم يعرف الخيانة طيلة علاقته بها.

واستمرت علاقة جبران بماري هاسكل ، حتى بعد أن تزوجت من « عمها » فلورنس ماينس في ٧ آب العام ١٩٢٦ ، وانتقلت إلى بيتها الزوجي في سافاناه . وبقيا يراسلان بعضهما ، ويبعث جبران إليها مسودات مؤلفاته لتنقيحها وتصحيحها حتى وفاته.

---

(١) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٧٠ .

(٢) توفيق صايغ ، **أضواء** .... مصدر سابق ، ص ١٤ .

(٣) سلمى الحفّار الكزبري ، **جورج صاند** ، بيروت ، مؤسسة نوفل ، ١٩٧٩ ، رسالة من دي موسيه إلى صاند ، ص ٨٨ .

وخلال هذه العلاقة التي استمرت سنيناً ، كانت ماري هاسكل امرأة ، وكأنها ليست امرأة . ويقول عنها نعيمة . « فلا أثر في روحها لغيرة النساء ، ولا في قلبها لشهواتهن . كأنها لم تُصنع من ضلع الرجل ، بل جُبلت من شرفه دون قساوته ، ومن عفة المرأة دون ضعفها . هو يحبها ، لكن بغير الحب الذي أحب به ميشلين »[١] وغيرها من النساء اللواتي مررن في حياته .

أما عن الجوانب الجسدية ـ الجنسية من هذه العلاقة ، فسنتناولها لاحقاً في فصل « جبران والجنس » .

***

ميشلين

ماري هاسكل وميشلين هما المرأتان اللتان تحدث الباحثون عنهما ، منذ صدور كتاب صديق جبران ، ميخائيل نعيمة ، **جبران : حياته ، وآثاره** ، أكثر مما تحدَّثوا عن سواهما فيما يتعلق بأثر المرأة في حياته . وميشلين وقصتها معه هي بيت القصيد في حياته الخصوصية ، حسب قول فليكس فارس.

وكثر القيل والقال حول هذه العلاقة وأبعادها . فالبعض ، ومنهم نعيمة ، رأى أن هذه العلاقة كانت تلبية لنداء الدم واللحم ، والبعض الآخر رآها عكس ذلك وأنها لم تتعد التناغم الروحي ، والبعض الثالث شطح بخياله ليقول أن ميشلين وهم ولا وجود لها على أرض الواقع . ورداً على هذا الإدعاء يقول مارون عبُّود : ليست ميشلين شخصاً وهمياً في حياة جبران ، فهناك صورة لها بريشته محفوظة في متحفه ، ويعود تاريخها إلى سنة ١٩٠٨ . إن ميشلين شخص من لحم ودم مرَّ في طريق

---

(١) ميخائيل نعيمة ، **جبران : حياته و آثاره** ، بيروت ، دار صادر ، ص ١٠٦ .

جبران . ومذكرات ماري هاسكل ، جاءت لتكشف الحقيقة ، وتنفي كل التباس ، وتثبت بما لا يقبل الشك حقيقة وجود ميشلين .

إنما تبقى التساؤلات واردة حول ماهية العلاقة التي كانت قائمة بين الإثنين . وقبل الغوص في هذا الأمر ، علينا أن نلقي الضوء عن بدء التعارف ونشوء العلاقة بين جبران وميشلين.

تعرَّف جبران على ميشلين الفرنسية عن طريق ماري هاسكل ، خلال إقامته معرض صوره في مدرستها . وكانت آنذاك إبنة عشرين سنة ، تتدفق حيوية بقدر ما هي فتّانة . ومن النظرة الأولى ، وقع جبران في هوى ميشلين وتكرَّرت اللقاءات بينهما وإثر هذه الخلوات الغرامية كان جبران يرسم موحيته الجديدة وينظم لها القصائد.

عندئذ ، وجدت ماري بحدسها ونظرتها الثاقبة في صوفيته الشرقية نفحةً تلطف جفاف أجوائها المدرسية الصارمة ، لكنها شعرت في الوقت نفسه أنه يميل بعاطفته الجياشة إلى ميشلين ، وبعقله الواعي إلى شارلوت تيلر أكثر مما يميل إليها . وعندما جلست له ميشلين موديلاً في المدرسة ، اضطربت أعصابه ، وقلبه ازدادت خفقاته ، فجاء الرسم بسبب ذلك فاشلاً ، لأن اضطرابه النفسي جعله يرى ميشلين بعين الإنسان العادي وليس بعين الفنان.

وقبيل سفره إلى فرنسا في عام ١٩٠٨ ، قضى جبران شهر أيار مغموراً بنشوة ميشلين، لكنها نشوة في مذاقها مرارة. أوقات صعبة، كلاهما يبكي محطم القلب . فأشفقت ماري على ميشلين ، فوهبتها تذكرة سفر إلى باريس ، لتكون في استقبال جبران فيها ، وبهذا العمل حوَّلت ماري جحيم العذاب إلى نعيم السعادة.

ميشلين ملكت على جبران مشاعره ومفاتيح خياله . كانت مبعث فرحه وحزنه . حتى أنه قال لها يوماً « أوتدرين ما يجول في خاطري ؟ قصة خيالية أجعل بعلبك مسرحها ومحورها ، حب قديم بين ابن كاهن من كهنة عشتروت وفتاة كميشلين ، وكيف كان هذا الحب يتجدد على مر

الأجيال . يموت الحبيبان ويولدان في أجسام جديدة وظروف جديدة »[١] ، فكانت قصة « رماد الأجيال والنار الخالدة » .

وكتب لها في إحدى رسائله : « لقد جنيت عليك وعلى نفسي يا ميشلين عندما أشركت في حياتي امرأة سواك (يقصد ماري هاسكل) فرضيت أن استدر جيبها وعقلها في حين استدر قلبك ولحمك ودَمَك»[٢]. «الحب يا ميشلين، هو الحب يأمر فنطيع، وينهي فنذعن، هو السلطان ونحن الرعية . من يعص الحب يعصى الله . إذ لا إله إلّاه . دعيني الآن ادفىء روحي بشعاع عينيك الجميلتين . وارشف الحق من شفتيك القرمزيتين ، وألمس الحياة في يديك الناعمتين »[٣].

وفي باريس ، كانت ميشلين في استقبال جبران ، وخففت عنه مشقّة الغربة ، واستأجرت له غرفة ، وجهّزتها بما يحتاجه الطالب من أثاث وأدوات . وفي إحدى رسائل ميشلين إلى ماري ، كتبت عن جبران تصفه « بأنه حسّاس جدّاً للبروز الإجتماعي ، وضعيف حيال اهتمام الآخرين به ، **لا سيما الجميلات** ، لكنّه جدي تقيم روحه في جزيرة مجهولة » وشعر جبران بأن حنان ميشلين الدافق عليه رطّب جفاف جهده المستمر ، فقال عنها لماري : « ميشلين الحلوة التي هي أم صغيرة عزيزة وطفلة صغيرة عزيزة ، إنها في الواقع عون كبير ».

ولدى عودته من باريس ، سألته ماري عن ميشلين ، فأجابها بشيء من التهكم المفتعل « إن آلهة الجحيم على الأرض ينادونها وهي لا تستطيع أن تصم أذنيها بالشمع » . ما سبب هذا التحول والتغيير ؟ . وكان قبيل عودته قد كتب لماري عن ميشلين يقول : ميشلين ، ميشلين المسكينة العزيزة . أتعرفين أيتها الحبيبة ماري أني لا أجد كلمة واحدة

---

(١) ميخائيل نعيمة ، **جبران: حياته و آثاره** ، مصدر سابق، ص ٨١ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٨ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٩٩ .

أقولها لها . إنها حلوة جداً وعزيزة جداً ، وأتمنى لو تجد سلاماً في ظل رجل صادق طيب ... إنها أشبه شيء بمرآة ـ كل امـرىء يرى فيهـا صورته هو . أنا سعيد بأنها عادت إلى التدريس ، وأنا سعيد بأنها بعيدة عن مماحكات البشر التي لا آخر لها . هل انقطع الحوار بين جبـران وميشلين في باريس ، بعد أن تقلص سحر الجسد ؟ لم تكن في عينيه إلا قالباً جذاباً شحَّ مغناطيسه مع الأيام ، على حد قول جميل جبر.

هذا التغيير المفاجىء يدعم رأي نعيمة بأن جبران أقام عـلاقة جسدية مع ميشلين . فعندما زارته في شقته بباريس ، طالبةً منه عمل شيء بالنسبة لثمـرة حبهما التي تنبض في أحشـائها، دعـاها جبـران إلى التخلص من هـذه الثمرة بـأي وسيلة حتى لا تكـون شاهـداً على فعلته . وهذا الموقف الإنهزامي دفعها للتواري عنه إلى الأبد . وخلال هـذا اللقاء الـذي شكل منحى خطيـراً في علاقتهمـا ، قالت ميشلين لجبران : « قدوس ، قدوس ، قدوس ، لقد اقترنت برفيقتك أمام الله يا خليل ، فمتى تقترن بها أمام الناس ؟ . فأجابها : ما أكثر ترابك وأقل تبرك يا ميشلين . الناس . الناس . الناس . ما همي بالناس وبما يقولون ويفعلون ؟ هل جمعوا مرَّة بين قلبين متحابين إلا ليفصلوهما ؟ أو ربطوا متناقضين إلا ليقتلوهما برباطهم ؟ »[1].

وقبل ذلك قال لها : « فسبحان من جَمَع بين النسر والدجاجة .

فأجابته : وأنت لا تأنف أن تغذي جسمَك ببيض الدجاج ولحومها يا خليل !.

قال : جسمي لا روحي يا ميشلين.

عندها انتفضت وقالت : إذن أنا غذاء لجسمك لا أكثر ولا أقل . أنا مطية لشهواتك ، أنا ألعوبة بين يديك »[2].

---

(١) ميخائيل نعيمة ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

جبران الذي كان مصاباً بجرح منذ طفولته ، بسبب الاضطهاد الأبوي ، تولّدت في أعماقه نزعة السادية ، وإثبات الـذات عن طريق توجيه عدوانيته نحو الآخرين . حيث « يعتقد السادي أن أكبـر إثارة ممكنة الإعتراف الحقيقي بالذات ، وتحقيق الذات الأكثر عمقاً يحصل عليه من خلال التحقق من قـدراته على إنـزال العقاب والمعـاناة في الآخر . إنها سيطرة تتميز بجبروت القدرة على إعطاء الموت ، تُعاش كمجد ذاتي ونرجسي . وهي تتضمن نوعاً من نشوة القوة بدلاً من نشوة المتعة الجنسية »[١] .

هكذا كانت مسلكية جبران تجـاه ميشلين التي أحبته بكليتهـا . إنمـا طنسي زكّـا ، يـرفض مقـولـة نعيمـة ، ويحمـل عليهـا ، ويقف مـوقف محامي الـدفـاع عن جبـران ، ويقـول : « إن حـادث بـاريس الذي يتكلم عنه نعيمـة يبدو أنـه مختلق ، فميشلين لم تلحق بجبران إليها . إنما كانت في الواقـع فيها يـوم وصولـه ، والتقيا فيهـا مراراً عديدة »[٢] . إن زكّا لم يأت بجديد ، ولم يثبت عكس ما قاله نعيمة . إلا أنه يستطرد ، فيقول : وكل ما يرد عن حمل ميشلين من جبران وعن طلب جبران القضاء على الجنين إنما هو إختلاق وليس من الواقع في شيء . ولم يهتد فليكس فارس إلى هذا الأمر ، ولو اهتدى لاتهم نعيمة بتشويه جبران ، ولما أجهد نفسه بالطرق المختلفة ليجزم بعدم صحة روايـة نعيمة. كأن يتسـاءل، بصفته رجـل قانـون، ذلك التسـاؤل القانـوني : « لماذا لم تقف ميشلين في مطالبتها غاويها موقف العذراء المهتوكـة العرض ، تتقاضى حق حياتها سلطانة على عرش الزواج ؟ »[٣] كيف يريد زكّا أن تكون المقاضاة ، وقد تبرأ العاشق من عشيقته ، والحـبيب من حبيبته التي وهبته بإرادتها الروح قبل الجسد ؟.

---

(١) مصطفى حجازي ، **التخلف الاجتماعي** ، بيـروت ، معهد الانمـاء العربي ، ١٩٨١ ، ص ١٩٩ .

(٢) طنسي زكا ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٧١ . (٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٤ .

إلا أن حقيقة هذه العلاقة ، تبقى في ذمة التاريخ ، إلى أن تتوفر الوثائق والبيانات الثبوتية لتكشف كل التباس ، وتضع حداً للتساؤلات المتناقضة حولها . وحتى ذلك الحين ، فالشيء الذي لا يقبل الجدل أن جبران كان يوزع عواطفه يمنة ويسرى ، ويتلاعب بعواطف النساء كيفما يشاء ، دون شعور بما ستخلفه هذه الإنفلاشية من مآسٍ على الآخرين . وفي تشرين الأول ١٩١٤ ، تزوجت ميشلين من المحامي لامار هاردي ، وفي قلبها جرحٌ دام وذكريات سوداء.

* * *

شارلوت تيلر

ما كاد جبران يطوي صفحة جوزفين بيبودي من صفحات حياته حتى فتح صفحة جديدة . ففي عام ١٩٠٥ دعته ماري هاسكل إلى حفلة شاي في مدرستها ، وخلال الحفلة تعرف إلى امرأة مطلّقة تدعى شارلوت تيلر.

شارلوت تيلر تركت زوجها بدون سبب ، ولحقت بعشيقها الصحافي الى بوسطن كي تبني شهرتها الأدبية . تتلمذت على الفيلسوف جون ديوي في جامعة شيكاغو ، ثم علّمت معه . مارست سحرها على جبران خلال حفلة الشاي وتعاطفت معه في أمور شتى ، ولا سيّما فكرة التقمص . فقالت له « إنني مثلك أؤمن بالتقمص ، لذلك أعتقد بأني عشيت معك في مكان آخر من قبل ، وأعتقد بأننا عشنا في مصر أيام الرومان ، ولكنك كنت شقيقي في ذلك الزمان »[١].

وفي مناسبة أخرى أعربت شارلوت عن اعجابها برسومه وخواطره الشعرية ولكنها أرادته أشد نبرةً وأعنف تعبيراً ، وأرادته أيضاً أن يتخلّ عن ميوعة الشرقيين رغم ولعها بروحانيتهم الصافية ، فكان لها

---

(١) انطوان فرنسيس ، **جبران العاشق** ، بيروت ، دار الصياد ، بدون تاريخ ، ص ١٥٦ .

أثر في تطويره ، لا سيَّما في المرحلة التي كان وحده في الخضم يفتش عن خشبة الخلاص.

التقى جبران شارلوت مجدَّداً في باريس ، حيث دخلت قلبه بعد أن رحلت ميشلين ولفها غبار النسيان . أتت لتفتح نوافذ الأمس المغلقة ، وتعيد الحياة إلى قلوب تؤمن بأنها توحدت منذ أجيال غابرة . وقبيل مغادرتها باريس ، وبعد نزهات رومانسية قامت بها مع جبران ، بعثت برسالة إلى ماري هاسكل قالت فيها : « ها أنا في طريقي إلى أميركا . خليل في حالة جيدة ، أمضينا وقتاً جميلاً معاً ، وقضينا أسبوع عطلة في فرساي . لقد تقدم كثيراً في عمله ، نضجت شخصيته كثيراً هذه السنة . إنه يعمل رسماً لي من أجلك . لا يا عزيزتي ، لا هو يستطيع ، ولا أحد يستطيع أن يحبني كما أنتِ تحبينني . وأنا لا أحب أحداً كما أحبك أنت »[١].

***

ماري قهوجي

« تعرف جبران إليها سنة ١٩٠٥ ، وكانت تسكن بالقرب من منزل عائلته في بوسطن ، أحبها وأحبته ، ثم تحوّلت المحبة بينهما إلى صداقة شدّت أحدهما نحو الآخر». وجرت بينهما مراسلة دامت سنوات عدَّة ، وهذه المراسلة « إن دلَّت على شيء ، فإنما تدل على ما في قلبيهما من تجاوب ، وما في روحيهما من انسجام ، وما في شخصيتيهما من ثقة متبادلة »[٢].

وقيل إنه رسم وجه المصطفى « النبي » مستوحياً إياه من ملامح وجه ماري قهوجي ، صاحبة العيون الكحلاء ، كما وصفها لأمين

---

(١) المرجع نفسه ، ص ١٧٠

(٢) جميل جبر ، **جبران في حياته العاصفة** ، مرجع سبق ذكره .

الريحاني . وقد عُثر على رسالة من جبران إليها تعود إلى ١٩٢٩ ، قال فيها : « صديقتي العزيزة . أشكرك من صميم قلبي لاهتمامك بصحتي ، وإني لا ولن أنسى هذا العطف المغمور بالأنس والرقة . لقد اعتدلت صحتي حتى أنني لم أعد أفكر فيها ، فرجعت إلى العمل وإلى كل ما يستولده العمل من اللذة والألم والحرقة والتشويق . لقد وجدت يا صديقتي أن فسحات الأحلام هي خير ما في العالم »[١] . وفي ختام الرسالة يعاتبها جبران على تقصيرها في تطمينه عن صحتها وأحوالها ، وينتقد بوسطن التي يكثر فيها القيل والقال . وادعت ماري قهوجي بأن جبران كان « واقعاً في حبها يومذاك ». ويشكك الشاعر خليل حاوي في هذا الادعاء ويقول « لكن ما دامت كثيرات غيرها قد ادَّعين مثل هذا الادعاء بعد وفاة جبران ، فلا يسعنا أن نقبل ما ذهبت اليه بمعناه الظاهري ، إذ لا أثر للهيام والغرام في اثنتين من رسائل جبران إليها .. ومن المحتمل أنه كان واقعاً في حبها ، لكنه لأسباب خاصة كان محترساً في رسائله إليها»[٢]. إن خليل حاوي يناقض نفسه بنفسه ، ففي بداية حديثه يصف قول ماري بحب جبران لها بأنه ادعاء ، ثم يعترف باحتمال وجود حب بينهما حتى من طرف جبران . وفي عودة سريعة إلى رسالته لأمين الريحاني ، يزول كل التباس أو شك . ففي هذه الرسالة يقول « قد ذكرتك وأنا محدّق بالعيون الشهل » ، ويغمز بهذا القول إلى ماري قهوجي . إضافة إلى أن إمرأة بجمال ماري قهوجي فتحت أبواب قلبها له ، من الشك والمستحيل ألا يلجه جبران ويتربع على عرشه ، بعدما عرفنا عنه مدى عشقه لجمع أكبر عدد من الحبيبات ليحطن به ، إحاطة النجوم بقمر السماء.

***

---

(١) **رسائل جبران التائهة** ، مصدر سابق ، ص ١٢٨ .

(٢) خليل حاوي ، **جبران في اطاره الحضاري** ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٨٣ ، ص ١٠ .

ماري خوري

ماري خوري هي أرملة عيسى خوري . تعرَّف عليها جبران خلال سنيّه الأولى في نيويورك ، حيث كانت تستقبل في منزلها نخبة من المثقفين والشعراء ، معظمهم من اللبنانيين ، وفي طليعتهم أمين الريحاني ، صديقها وصديق زوجها الراحل منذ زمن بعيد . وبعد أن تزوج الريحاني من الفنانة «برتا كايس» وسافرا معاً إلى أوروبا أصبح جبران نجم صالون هذه اللبنانية الغنية ، تاجرة المجوهرات والأثريات.

ربطته بها علاقة غرامية . رأت ماري في جبران فتى الأحلام ، بالرغم من فارق السن بينهما ، ولقد حاولت أن تستأثر به ، وقابل هذه الرغبة بالمثل . وقيل ان جبران رفع مرَّة عصاه في وجه الريحاني لخلاف نشب بينهما حول حب ماري خوري ، وكل منهما كان يريد أن يكون قلبها له . وازدادت رغبة الأرملة الطروب في امتلاكه ، بعدما عرفت بعلاقته وماري هاسكل . لكن جبران شاءها عروساً لفنه وواحة أمن يرتاح فيها ليزيل عن كاهله أعباء النفس . تقول ماري عن هذه العلاقة ، التي بقيت تفاصيلها غامضة ردحةً من الزمن ، عندما زارها الأستاذ نديم المقدسي عام ١٩٥١ في نيويورك : « عرفت جبران ، عرفته جيداً . ورغم أن علاقتي به لم تدم طويلاً ، لكني أعتقد أنني كنت الوحيدة التي استطاعت أن تفهمه جيِّداً . فجميع النساء اللواتي كان لجبران علاقة عاطفية بهن ، كن أجنبيَّات . نعم كانت هناك مي زيادة ، ولكن علاقته بها كانت بالمراسلة ، لم يلتق بها يوماً ، أما أنا فكنت اللبنانية والعربية الوحيدة التي أقام معها علاقة عاطفية ، وربما تلك الصلة ، صلة التراث الواحد ، والأصل الواحد ، جعلت جبران ينفتح لي كما لم يفتح نفسه لامرأة أخرى . وجعلتني أفهمه كما لم تفهمه امرأة »(١).

---

(١) نديم المقدسي ـ سهرة مع ماري خوري ، بيروت ، **النهار العربي والدولي** ، العدد ٣٢٤ ، ١٩٨٣/٧/١٨ .

ثم دعت ماري خوري ضيفها المقدسي إلى مائدة وما ان ارتاحا حتى تنهدت بعمق وقالت : في هذا المكان بالذات ، وحول هذه المائدة كنت أجلس لأتناول العشاء مع جبران . كان جبران يأتي للعشاء مساء كل أربعاء وكل سبت ، ويمضي بقية الليل هنا . وفي بعض الأحيان يبقى يوم الأحد كله . وكنا سعيدين جداً من جميع النواحي ، فكان يقرأ لي ما يكتبه على أوراق كان يحملها دائماً في جيبه عن أفكار ومؤلفات . وفي بعض الأحيان كنا نغادر المنزل ونقطع الجادة الخامسة إلى حديقة سنترال بارك لنقوم بجولة فيها »[١] . ورداً على سؤال وجهه المقدسي إليها قالت : « كان حبي لجبران كاملاً ، فكرياً وروحياً وجسدياً . بل أنا متأكدة أنه كان يشاركني ذلك الحب والشعور ، وكنت مستعدة أن أعطيه كل ما عندي ، ولم يكن يتردد في أن يأخذ ويعطي . واستمرت العلاقة بيننا بهذه القوّة أكثر من سنتين ، قبل أن تبدأ تفتر بعض الشيء من جانبه لأسباب عديدة ، منها مرضه الذي أخذ يشتد مع الأيام . ولكن بقي صديقاً مخلصاً لي حتى النهاية ، يبعث لي برسائل يعرب فيها عن شعوره نحوي »[٢].

كانت ماري خوري حقاً خبيرة بنفسية الأدباء . وقد حاولت كتابة القصة ، وأجزلت العطاء لجبران ، وأكثرت من شراء رسومه ، ولما أحس أنها تتملكه ليلة بعد ليلة لتنال منه ما لم تستطع جوزفين وميشلين وهاسكل نيله ، جاهرها بالحقيقة . وقد عبَّر عن تجربته معها في قصيدته النثرية **الجنيّة الساحرة** ، فقال فيها : « إلى أين تسيرين بي أيتها الساحرة ؟ حتى مَ اتبعك على هذه الطريق الوعرة ؟ »[٣].

يشير جبران إلى حياة الملذات الجسدية التي تهبط بالنفوس الى

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) جبران ، **المؤلفات الكاملة** ، ص ٣٨٦ .

أعماق الظلمة الباردة ، معترفاً لها بأنه قد تمسك بأذيالها وسار وراءها كطفل يلاحق أمه ، إلَّا أنها تناست ما لديه من أحلام بفعل نشوة اللذة ، والسكر بخمرتها ، منجذباً لاإرادياً بالقوة الخفية في جسدها . وفي النهاية بعد يقظته من هذه الغفلة ، أدرك مخاطر هذه الطريق على أحلامه وأماني نفسه ، فقال لها : « ها قد استرجعت قواي ، وكسرت القيود التي برت قدميَّ ، وسحقت الكأس التي شربت منها السم الذي استطيبته»[١]. استرجع جبران في مخيلته أيامه الغابرة ، وكيف كان يسعى كالحالم تحت جنح الظلام ويدخل من شقوق النوافذ إلى خدور العذارى النائمات ، ثم يقف بجانب أسرَّة الفتيان ويثير ميولهم ، كما يجلس قرب الشيوخ ويستجلي أفكارهم . وفي الوقت الحاضر « وقد لقيتك أيتها الساحرة ، وتسمَّمت بقبل يديك ، فقد أصبحت مثل أسير أجرُّ قيودي إلى حيث لا أدري . بل صرت مثل نشوان استزيد من الخمرة التي سلبتني إرادتي ، وألثم الكف التي صفعت وجهي »[٢].

هكذا انتهت أسطورة هذه الجنيّة الساحرة ، اسطورة ماري خوري ، في حياة جبران الملحمية ، التي كتبت بمداد من نسغ الجسد ، ووضعت خاتمتها بأصابع غير مرتعشة ، وهي تفيض بالنار الأزلية.

ولكن ثمة جوانب حسَّاسة في هذه العلاقة ، ما زالت مثار بحث وتدقيق ، خاصة من الناحية الجنسية . وفي فصل « جبران والجنس » سنتناول هذه المسألة لنؤكد أو ننفي ما ادعته ماري خوري ، عن ممارسة جبران الجنس معها ، بالرغم من أن قصيدة « الجنية الساحرة » ترفد أقوالها بماء الصدق والحقيقة .

***

(١) المصدر السابق ، ص ٣٨٧ .
(٢) المصدر نفسه .

مي زيادة

مي زيادة ، تلك الأديبة المبدعة ، التي كان من روّاد ندوتها نخبة من رجالات الفكر والأدب وتبارى الخطباء والشعراء في وصفها ، بشتى أنواع الكلام ، والتي أحيَت بندوتها عهد سُكينة بنت الحسين ، والمركيزة دو رمبوبيه. مي زيادة التي تألم لألمها ولي الدين يكن، وطلب السقام لجسمه بدلاً من أن يغزو جسدها البضّ ، ولما علم أنها مريضة كتب لها هذه الأبيات :

أتسقم مي وأبقى صحيحاً
ألا إنني الصاحب الخائن
فيا رب هب لي مواجع مي
بأضعاف ما يزن الوازن
وهب حياتي حياة لها
واني لأمثالها ضامن

والشاعر المصري إسماعيل صبري نظم فيها بيتين مشهورين :

روحي على بعض دور الحي حائمة
كظامىء الطير توّاقاً إلى الماء
إن لم أمتّع بمي ناظريَّ غداً
لا كان صبحك يا يوم الثلاثاء

هذه هي الأديبة اللبنانية التي عاشت في مصر ، وحازت على إعجاب رجال الأدب الذين تباروا في طلب ودّها ، والإستئناس بندوتها ، كُتِب لها كباقي ابناء البشر أن تسلّم روحها وقلبها لملاك الحب.

فمي بين « المحبين كداود النبي بين التائبين ، توبة داود متقدة صارمة ، ومحبة مي مؤلمة عارمة . وفي كليهما لذة كالقشعريرة التي

تأخذنا عند فجر أيلول في الخيمة »[1] .

في عام ١٩١٢ بدأت شهرة جبران الأدبية تبزغ في سماء العرب ، وشعاع هذه الشمس سكب الدفء في أعماق مي زيادة . وما إن شعرت بحرارة هذه الشمس الآتية من وراء الآفاق ، حتى أحست وكأن خيوطاً من نور تشدها إلى ما وراء تلك الآفاق . فكانت ولادة الحب بينها وبين جبران خليل جبران.

إن الحب الذي نشأ بينهما حب فريد « بل حب نادر ، لا مثيل له في تاريخ الأدب ، أو في سير العشاق . لقد دامت تلك العاطفة بين جبران ومي زهاء عشرين عاماً ، دون أن يلتقيا إلاَّ في عالم الفكر والروح والخيال الضبابي . إذ كان جبران في مغارب الأرض مقيماً ، وكانت مي في مشارقها »[2] . وقد أحبت مي جبران حباً كبيراً ، منذ أن كانت في أوج الشباب « وإن إعجابها العميق به جعل المقارنة بينه وبين الذين خطبوا ودّها أمراً مستحيلاً . معروفٌ أن الذين تقدّموا إليها راغبين في الزواج كثر ، وأن جلّهم كانوا من الشخصيات المرموقة اللائقة بها . ولكن قلبها كان مشغوفاً بجبران ، وأملها كان معقوداً عليه وحده ، لذا رفضت الزواج من غيره »[3] . إلاَّ أن ثمة بعض الدلائل تشير إلى أن مي أحبت غير جبران ، ومنهم يعقوب صروف ، والرافعي وعباس محمود العقاد . « كانت مي في حياة جبران الصديقة والحبيبة والملهمة ، وشقيقة الروح ، والصلة بينه وبين وطنه ، وشرقه ، وذاته في أعمق أغوارها . أحب فيها المرأة الحلوة الذكية على طريقته هو ، وكان أكثر ما أحبه فيها عقلها النيّر الذي يجلّه في مقالاتها وكتبها ، كما أنه أحب فيها

---

(١) مارون عبود ، **جدد وقدماء** ، مصدر سابق ، ص ١٥٠ .
(٢) سلمى الحفار الكزبري ، **الشعلة الزرقاء** ، دمشق ، وزارة الثقافة ، ١٩٧٩ ، ص ٧ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٨ .

حبها له ، وإعجابها بشخصيته وإنتاجه الأدبي والفني »[١] . وبمعنى آخر ،أحب ذاته فيها ، وليس ذاتها فيه . ومن خلال رسائله إليها ، قهر جبران الحيز المكاني بأحلام يقظته . ففي هذه الأحلام عبَّر عن خواطره وتخيلاته . ورأت الكاتبة الكزبري « ان مقارنة هذا الحب بما عرفناه من خصائص الحب العذري في الأدب العربي ، ليست أمراً ممكناً ، على الرغم من أنه ينطوي على بعض معاني الحب العذري ، ويتميّز بصفات خاصة تجعله في يومنا هذا مثالاً للحب والتمرّد على كل ما هو مادي ، وسطحي وأرضي »[٢].

بدأت مي تراسل جبران عام ١٩١٢ ، بعد أن قرأت بعض مقالاته في الصحف ، وأصبحت تتقصّى أخباره ونشاطاته بلهفة وشوق وإعجاب . وكان عمرها آنذاك ستة وعشرين عاماً وجبران ثلاثة وعشرين عاماً . وفي غضون هذا العام ، صدرت لجبران **الأجنحة المتكسرة** ، فارسل لها نسخة منه . وبعد أن قرأتها كتبت له تنقده على بعض الآراء التي عبَّر عنها وخاصة ما يتعلَّق منها بالزواج . قالت له في رسالتها :

« إننا لا نتفق في موضوع الزواج يا جبران . أنا أحترم أفكارك ، وأجلّ مبادئَك ، لأنني أعرفك صادقاً في تعزيزها، مخلصاً في الدفاع عنها ، وكلها ترمي إلى مقاصد شريفة ، وأشكر لك في المبدأ الأساس القائل بحرية المرأة . فكالرجل ، يجب أن تكون المرأة مطلقة الحرية بانتخاب زوجها من بين الشبان ، تابعة بذلك ميولها وإلهاماتها الشخصية ، لا مكيّفة حياتها في القالب الذي اختاره لها الجيران والمعارف ، حتى إذا ما انتخبت شريكاً لها تقيّدت بواجبات تلك الشركة تقيداً تاماً . أنت يا جبران تسمّي هذه سلاسل ثقيلة حبكتها الأجيال ، وأنا أقول أنها سلاسل ثقيلة .. ولكن حبكتها الطبيعة التي جعلت المرأة

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩٠ .

ما هي ، فإن توصل الفكر إلى كسر القيود ، قيود الإصطلاحات والتقاليد فلن يتوصل إلى كسر القيود الطبيعية ، لأن أحكام الطبيعة فوق كل شيء . لم لا تستطيع المرأة الإجتماع بحبيبها على غير علم من زوجها ؟ لأنها باجتماعها هذا السرِّي ، مهما كان طاهراً ، تخون زوجها ، وتخون الإسم الذي قبلته بملء إرادتها ، وتخون الهيئة الإجتماعية التي هي عضو عامل فيها »[1].

وبعد هذا التمايز في فهم الواقع ، واختلاف الرؤية بينهما حول أكثر الموضوعات الإجتماعية حساسيةً ، لأن علاقة الرجل والمرأة داخل هذه الخلية مرآة المجتمع ، متخلفاً كان أو متطوراً راقياً متسامياً ، تتابع مي قائلة في الرسالة نفسها : « إني أشعر شعوراً شديداً بالقيود المقيّدة بها المرأة ، تلك هي القيود الحريرية الدقيقة كخيوط العنكبوت ، المتينة متانة أسلاك الذهب . ولكن إذا جوّزنا لسلمى « بطلة الرواية » ولكل واحدة تماثل سلمى عواطف ، وذكاء وسمواً ، الإجتماع بصديق شريف النفس عزيزها ، فهل يصح لكل امرأة لم تجد في الزواج السعادة التي حلمت بها وهي فتاة ، أن تختار لها صديقاً غير زوجها ، وأن تجتمع بذاك على غير معرفة من هذا ، حتى وإن كان القصد من اجتماعهما الصلاة عند فتى الأجيال المصلوب »[2].

بالرغم من هذا التباين في وجهات النظر ، نمت العلاقة بينهما ، حتى تخطت مسافة آلاف الأميال التي تفصل بينهما جسدياً . إلّا أنها تدرجت شيئاً فشيئاً من التحفظ والتودد ومن الإعجاب إلى صداقة حميمة ، إلى حب بلغ أعلى ذراه . وهذا الحب ـ الطفل الذي تكون في حنايا قلبها ـ جعلها تعرض بشكل مكشوف عن الدكتور يعقوب صروف الذي كانت تشدّها إليه علاقة تجاوزت حدود الصداقة. في التاسع عشر

---

(١) جميل جبر ، **رسائل جبران** ، بيروت ، مكتبة بيروت ، ١٩٥١ ، ص ١٦ ـ ١٧ .
(٢) المصدر نفسه .

من آذار عام ١٩١٢ كتبت له رسالة تعرفه فيها عن نفسها «أمضي مي بالعربية ، وهو اختصار اسمي ومكوّن من الحرفين الأول والأخير من اسمي الحقيقي الذي هو ماري ، وامضي «ايزيس كوبيا » بالإفرنجية ، غير أن لا هذا اسمي ولا ذاك ، إني وحيدة والديّ ، وإن تعدَّدت ألقابي »[١].

إبَّان الحرب العالمية الأولى ، توقفت الرسائل بينهما ، إلى حين انتهاء الحرب ، حيث استؤنفت عام ١٩١٩ ، عقب صدور كتابيه **المواكب** و **المجنون** . فكتبت عنهما نقداً لاذعاً وعنيفاً في مجلة **الهلال** ، وأبدت أسفها لما في كتابه **دمعة وابتسامة** ، الذي صدر عام ١٩١٤ ، من مقالات جديرة بالحذف.

في السابع من شباط عام ١٩١٩ كتب لها رسالة قال فيها : « ... هل تعلمين بأنني كنت أقول لذاتي هناك في مشارق الأرض صبية ليست كالصبايا قد دخلت قبل ولادتها ، ووقفت في قدس الأقداس فعرفت السّر العلوي الذي تحفزه جبابرة الصباح ، ثم اتخذت بلادي بلاداً لها ، وقومي قوماً لها »[٢] . في الحادي عشر من حزيران ١٩١٩ كتب لها ، معبراً عن فرحته لاستلامه ثلاث رسائل ، فقال : « إن يوماً يجيئني منك رسالة واحدة لهو من الأيام بمقام القمة من الجبل . فما عسى أن أقول في يوم يجيئني بثلاث رسائل ؟ ذلك يوم اتنحى فيه عن سبل الزمن لأصرفه متجولاً في إرم ذات العماد »[٣] . ثم يتابع كلامه فيقول ، حاثاً إياها على السير وراء نداء القلب : « ما أجمل رسائلك يا مي وما أشهاها ! فهي كنهر من الرحيق يتدفق من الأعالي ، ويسير مترنماً في وادي أحلامي ، بل هي كقيثارة أورفيوس ، تقرّب البعيد وتبعد القريب ،

---

(١) جميل جبر ، **جبران في حياته العاصفة** ، مصدر سابق ، ص ٣١ .
(٢) الكزبري ، **الشعلة الزرقاء** ، ص ٤٠ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٩ .

وتحوِّل بارتعاشها السحري الحجارة إلى شعلات متقدة ، والأغصان اليابسة إلى أجنحة مضطربة » . والجدير بالذكر ، أن رسائل جبران في بداية عام ١٩١٢ وحتى مطلع عام ١٩١٩ كانت تبتدىء بعبارة « حضرة الأديبة الفاضلة » ، وفي العام ١٩١٩ انهارت بعض الحواجز المصطنعة بين الروحين ، فصار يخاطبها بـ« عزيزتي الآنسة مي » وبدأت كلماته تحمل بين أحرفها نسمات الحب ، فقال لها « أما السعادة فهي أن يملأ المرء نفسه من خمرة الحياة ، ولكن من كان كأسه سبعة آلاف فرسخ بالطول وسبعة آلاف فرسخ بالعرض لا ولن يعرف السعادة حتى تنسكب الحياة بكاملها في كأسه . أفليس كأسك يا مي سبعة آلاف فرسخ وفرسخ ؟ » . وفي الخامس والعشرين من تموز من العام نفسه ، لمّح لها عن مكنونات نفسه ، وعن الخيط الأثيري الذي يشدّه عبر سبعة آلاف فرسخ الفاصلة بين نيويورك والقاهرة بحاراً ووهاداً ، قال: « في هذه الرابطة يا مي، في هذه العاطفة النفسية ، في هذا التفاهم الخفي ، أحلام أغرب وأعجب من كل ما يتمايل في القلب البشري ـ أحلام طي أحلام طي أحلام »[١] .

وخلال عام ١٩٢٠ ، أحسّ جبران بحالة من الحيرة والقلق ، وبانشطار داخلي رهيب ، وبتشتت عاطفي بين ماري هاسكل وميّ . فنقل لها هذه الحالة في رسالة بتاريخ الثالث من تشرين الثاني : « ماذا أقول يا مي عن رجل أوقفه الله بين امرأتين ، امرأة تحوك من أحلامه اليقظة ، وامرأة تحوك من يقظته الأحلام »[٢].

إن تساؤل جبران ، حرَّك في عقل مي حقيقة مؤلمة ، وهي أنها امرأة تحوك من أحلامه اليقظة ، وهذه اليقظة يأباها جبران ، وهذا ما زرع في دواخل نفسها ألف شك وشك . ولكن كلماته التالية خففت من

(١) الكزبري ، **الشعلة الزرقاء** ، مصدر سابق ، ص ٦٠ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٩٤ .

غلواء غضبها ، وأظهرت مدى قلقه النفسي « أنا ضباب ، وفي الضباب وحدتي ، وفيه وحشتي وانفرادي ، وفيه جوعي وعطشي . ومصيبتي أن هذا الضباب وهو حقيقتي ، يشوق إلى لقاء ضباب آخر في الفضاء ، يشوق إلى استماع قائل يقول : لست وحدك ، نحن إثنان ، أنا أعرف من انت . كنت في العام الغابر قد بلغت ذلك المكان البعيد ، التفت فرأيت روحاً ثانية جالسة بجانب روحي تبادلها ما هو أدق من الأفكار وتشاركها بما هو أعمق من العواطف »[١] . وفي الخامس من تشرين الأول عام ١٩٢١ كاشفها بحقيقة مشاعره جهراً ومباشرة فقال لها : « أنت تحيين فيَّ وأنا أحيا فيكِ ، أنت تعلمين ذلك وأنا أعلم ذلك ... منذ البدء عرفنا هذه الحقيقة الأولية ، فلماذا لم نظهرها بصراحة المؤمنين المخلصين المتجردين ؟ . لو فعلنا لكنا أنقذنا أنفسنا من الشك والألم والندم والسخط والمعاكسات التي تحوّل عسل القلب إلى مرارة، وخبز القلب إلى تراب، الله يسامحك ويسامحني »[٢] .

أي حقيقة هذه التي يريد جبران إظهارها ؟

لو أظهرا هذه الحقيقة، وكل منهما خلع وشاح الصمت عن قلبه، هل كان الواقع تغيَّر ؟ هل كان جبران قد قرَّر وراء أي من الإمرأتين سيمشي ؟ هل كان بامكانه التخلي عن النعمة والحنان اللذين تغدقهما عليه ماري هاسكل لقاء حب ضبابي ؟ وهل ميّ تعاكس محبةً بالمعاكسة ؟ أم أنها تمارس حقها في مطالبة من تحب بالوفاء والإخلاص ؟ . إن جبران يسقط تناقضاته وسلبياته على ميّ ، ويحمّلها مسؤولية عقده النفسية . فهذا الإنسان الذي اختار نفسه نبياً ، وحواريوه كانوا غالباً من النساء ، أكان حقاً قادراً على الحب بعد أن نذر نفسه قسراً للنبوّة ؟ إنه قادر على حب الحب ، وليس على حب امرأة من لحم ودم . وما المرأة ، في مثل هذه الحالة ، سوى الطريق المؤدية إلى

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣٠ .

الحب المطلق ، الحب بذاته . وجبران يلفظ ويكتب الكلمات النـابضة بالرقة والحب والمعاناة ، لتدخل قلب ميّ ، وتنسج حوله شباكاً تشدّها إلى عالمه . وها هو يخـاطبها قـائلاً : « وأنت يـا مي ، أنت صغيرتي الكبيرة ، تساعدينني الآن على الإصغاء إلى الحرف الثاني ، وسوف تساعدينني على لفظـه ، وستكونين معي دائمـاً »[١] . ثم يقول « أنت أقرب الناس إلى روحي ، وأنت أقرب الناس إلى قلبي » . ألم يقل هذه الكلمات لماري هاسكل ؟ . كانت مي زيادة حتى عام ١٩٢٣ . تتجنب التعبير المباشر عن مشاعرها حيال جبران . وبعد الرسائل الكثيرة التي وصلتهـا ، وتتضمن شكواه من العـذاب الذي يعـانيه، رقّ قلبهـا، وشعـرت بالشجاعة والجرأة لتنطق كلمتها . فكتبت في رسالة إليه في الثالث من آب ١٩٢٣ « جبران كتبت كل هذه الصفحات ضاحكة لأتحايد قول أنك محبوبي ، لأتحايد كلمة الحب . ما معنى هذا الذي أكتبه . أني لا أعرف ماذا أعني به ، ولكني أعرف أنك محبوبي ، وإني أخاف الحب . إني أنتظر من الحب كثيراً، فـأخاف أن لا يـأتيني بكل مـا أنتظر. أقـول هذا مـع علمي بأن القليل من الحب كثير ، ولكن القليل من الحب يرضيني »[٢] . واستمرت في ترديد « إن الذين لا يتاجرون بمظهر الحب ودعواه في المراقص والإجتماعات ينمّي الحب في أعماقهم قوة ديناميكية رهيبة ، قـد يغبطون الـذين يوزعـون عواطفهم في الـلألاء السطحي لأنهم لا يقاسون ضغط العوطف التي لم تنفجر ، ولكنهم يغبطون الآخرين على راحتهم بدون أن يتمنوها لنفوسهم ، ويفضلـون وحدتهم ، ويفضلـون السكوت ، ويفضلون تضليل قلوبهم عن ودائعها ، والتلهي بما لا علاقة له بالعاطفة »[٣].

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٥٤ .

(٢) جميل جبر ، **جبران في حياته العاصفة** ، ص ٢٤٢ .

(٣) الكزبري ، **الشعلة الزرقاء** ، ص ٢٢ .

هـذه الكلمات التي تنم عن قلب عـاشق جريـح ، تحتضن بين حروفها خناجر العتاب والشكّ وعدم الإيمان بالحب من قبل جبران ، وما إن امتصت معانيها عينا جبران ، حتى شعر بهذه الخناجر تمزق شغاف قلبه ، وجدران نفسه . وبدلاً من أن يضع لتناقضاته حداً ، واصل لعبته كي لا يخسر تلك الملهمة التي تُشكّل حافزاً مهماً في ابداعه . فكتب يحثها على الإيمان بالحب ، والإرتياح في كنف ظلاله . بعث إليها برسالة في السادس والعشرين من شباط عام ١٩٢٤، جـاء فيها: «تقـولين لي انك تخافين الحب، لماذا تخافينه يا صغيرتي؟ أتخافين نـور الشمس؟ أتخافين مد البحر ؟ أتخافين طلوع الفجر ؟ أتخافين مجيء الربيع ؟ لماذا يا ترى تخافين الحب ؟ فيه من الألم والحنين والوحشة ، برغم ما فيه من الالتباس والحيرة »[١] . رغم ما تحمل هذه الرسالة من حب ، فإن جبران يتقمص فيها شخصية النبي في مخاطبة حوارييه ، وكأنه من علياء سمائه يلقي عليها العظات ، ويخاطبها بـ«يا صغيرتي الكبيرة» . وبالطبع هذا ما أثار حنق مي التي لا تقلّ عنـه فكراً وعطـاءً وإبداعـاً. وأدركت أنه يُمـاري في حبه ، خاصة بعدما تذكرت تخلّفه عن موافاتها لرؤيته في القاهرة ، وتخلّفه عن التزاماته العاطفية حيالها . ففي إحدى رسائله السابقة عرض عليها الزواج ، ودعاها للإلتحاق به في نيويورك ، وهذه الدعوة اللامنطقيـة اعتبرتها مي نقيض طلبه الزواج منها . فكتبت له رسالة جوابية قالت فيها : « لما كنت أجلس للكتابة إليك ، كنت أنسى من أنت ، وأين أنت ، وكثيراً ما أنسى أن هناك رجلاً أخاطبه . فـأنا أكلمك غالباً كما أكلم نفسي ، وأحياناً كأنك رفيق لي في المدرسة ... إنما يطفو على تلك الحالة احترام خاص لا توجد بين فتى وفتاة ، أهي المسافة وعدم التعارف الشخصي ، والبحار المنبسطة بيننا هي التي كانت تلبس حقيقة ذلك التراسل ثوب الخيال ؟ »[٢] . و« هل كان لديّ

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٧١ .

(٢) **النهار** ، ١٩٨٢/٩/٢٥ .

وسيلة أخرى لأحوّلك عن هذا الموضوع وأذكّرك إني وحيدة أبويَّ ؟ قد لا يكون في العائلة الغربية إلا ولد واحد فيقذفون به من بريطانيا إلى الهند ، أو فتاة واحدة فترحل من فرنسا إلى الصين بلا جلبة أو ضوضاء ، ولكن أين نحن من هؤلاء ، ونحن شرقيون ؟ »[١].

في عام ١٩٢٤ ، لمس جبران البرودة القاتلة في موقف ميّ ، وندرت رسائلها إليه ، فأخذ يبعث بتوسلاته إليها أن لا تتركه وحيداً في صحراء الحياة المحرقة . ففي الثاني من تشرين الثاني كتب لها يقول : « يا ماري ، أنتِ تعرفين سكوتك ، أما أنا فأجهله . وليس من العدالة أن يكون جهل المرء مصدراً لتشويش أيامه ولياليه ... أخبريني يا صغيرتي المحبوبة عما حدث لك أثناء العام الغابر ، أخبريني واكسبي أجري »[٢] . هذه العبارات ما كانت إلا لتزيد مي إصراراً وقناعة بأن جبران يخادعها ويخدع عواطفه ، محاولاً التملص من حبائل سلبياته . وفي التاسع من كانون الأول ١٩٢٤ كتب إليها مجدّداً : « ما أغرب سكوت صغيرتي المحبوبة ! ما أغرب سكوتها ، ذلك السكوت الطويل كالأبدية ، العميق كأحلام الآلهة ! ذلك السكوت الذي لا يترجم إلى أية لغة بشرية ! ألا تذكرين أنه لما جاء دورك في الكتابة لم تكتبي ؟ أولا تذكرين أننا تعاهدنا على معانقة الصلح والسلام قبل أن يعانق الليل الأرض ؟»[٣] .

ثم يقول : « أفكر فيك يا ماري كل يوم وكل ليلة ، أفكر فيك دائماً ، وفي كل فكر شيء من اللذة وشيء من الألم . والغريب أنني ما فكّرت فيك يا مريم إلا وقلت لك في سرِّي : تعالي واسكبي جميع همومك هنا على صدري »[٤].

---

(١) جميل جبر ، **رسائل مي** ، ص ٥٧ .

(٢) الكزبري ، **الشعلة الزرقاء** ، مصدر سابق ، ص ١٧٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٥ .

(٤) المصدر نفسه .

استيقظت مي زيادة من حلمها لتجابه الحقيقة ، ذاك الحلم الذي أسبغ على جبران هالة من نور فبهرت مشاعرها ، وجذبتها إلى عالم وهمي ، لم تدرك كنهه إلاَّ بعد يقظتها التي كشفت لها وعورة العالم ، وان الهالة النورانية لم تكن إلاَّ سراباً ، وتصوراً من خيال مخدوع . استيقظت من حلمها ، ورأت أنها تخلّت عن حب حقيقي . وسارت وراء الأوهام والتخيلات . لقد خدعتها الكلمات المعسولة وتلاعبت بأوتار قلبها وعواطفها . تخلّت مي عن الرافعي الذي أحبته ، وأحبها حباً عنيفاً جارفاً لا يقف في طريقه شيء ؛ حب ليس من حب الناس ، حب فوق الشهوات ، وفوق الغايات الدنيا ، لأنه ليس له مدى ولا غاية »[١].

وعلى أثر هذه اليقظة ، عادت لتردم الهوَّة التي حفرتها بيديها بينها وبين الكاتب المصري عباس محمود العقاد الذي كانت تربطها به أيضاً أواصر حب عميق وكبير . فكتبت له قائلة : « إنني لا أستطيع أن أصف لك شعوري حين قرأت القصيدة التي أرسلتها لي ، وحسبي أن أقول لك ان ما تشعر به نحوي هو نفس ما أشعر به نحوك منذ أوّل رسالة كتبتها إليك وأنت في بلدتك التاريخية أسوان . بل إنني خشيت أن أفاتحك بشعوري نحوك منذ زمن بعيد ، منذ أوّل مرَّة رأيتك فيها بدار جريدة المحروسة . إن الحياء منعني . وقد ظننت أن اختلاطي بالزملاء يثير حمية الغضب عندك . والآن عرفت شعورك ، وعرفت لماذا لا تميل إلى جبران خليل جبران . لا تحسب أني أتهمك بالغيرة من جبران فهو في نيويورك ، لم يرني ولعله لن يراني ، كما أنني لم أره إلاَّ في تلك الصور التي تنشرها الصحف ... ستجمعنا زيارات وجلسات أفضي فيها إليك بما تدخره نفسي ويضمّه وجداني . فعندي أشياء كثيرة أقولها لك في خلوة من خلوات مصر الجديدة . إنني أُعلمك أن طبيعة الأنثى

---

(١) محمد حسن ، **مي اديبة الشرق والعروبة** ، القاهرة ، دار عالم الكتب ، ١٩٦٣ ، ص ٢٥٨ .

يلذ لها أن يتغاير عليها الرجال ، وتشعر بالإزدهاء حين تراهم يتنافسون عليها ، أليس كذلك ؟ »[١] .

وفي الوقت نفسه ، كان الأثير يحمل إلى ميّ من وراء البحار دعاءات جبران وتوسلاته ، غير عالم بأن التي وراء الأفق هبطت من فضاء الخيال إلى أرض الواقع ، وأن هالته قد تبدّدت أمام شمس الحقيقة ، وعرّته من كل أقنعته المستعارة . ففي الثالث والعشرين من آذار عام ١٩٢٥ ، كتب لها قائلاً : « أطلب إليك ، ربي وإلهي ، أن توعز إلى ماري ألاّ تهين وتحتقر الشعراء والفنانين بشخص عبدك جبران »[٢] . هذه التوسلات أحرجت مي ، فرأت أنه من الواجب أن لا تقسو أكثر من اللازم ، ومن أبسط الأمور أن تردّ على جبران ، فكسرت جليد الصمت وعادت تراسله ، مراسلة الأصدقاء فحسب . وما إن تسلّم جبران رسالتها ، حتى هدأت ثورة نفسه المفتعلة ، فكتب لها في الثاني من تشرين الثاني عام ١٩٢٦ : « ما أحلى اللقاء بعد الفراق ، ما أحلاه على القرطاس ... إني ما زلت التقي بك في الضباب ... ولكننا من روح وجسد ، ولا بد أن تكون مسرّاتنا مزيجاً من المحسوس وغير المحسوس ، مغزاه أني يرقني أن التقي بك في الضباب وخارجاً عنه »[٣] .

وعام ١٩٢٨ قطعت مي رسائلها عن جبران ، وبذلك قطعت الخيط الدقيق الذي ربط قلبيهما وروحيهما ردهة من الزمن ، وأدركت بعين العقل أنها كانت في حبها له تلاحق حلماً هارباً. « ظنت أنها وجدت فيه ضالتها المنشودة ، ولكنها علمت أخيراً أنها في سعيها تحاول المستحيل ، لأن المسافات البعيدة حالت بينها وبينه ، إلى جانب

---

(١) جميل جبر ، **رسائل مي** .

(٢) الكزبري ، **الشعلة الزرقاء** ، ص ١٨٩ .

(٣) وداد السكاكيني ، **مي زيادة في حياتها و آثارها** ، ص ١٩١ .

مسافات أخرى مصدرها موقف جبران السلبي من الزواج »[١] والارتباط بامرأة من البشر . عبثاً حاولت مي زيادة ، عبر مراسلاتها لجبران أن تقبض على الريح ، أن تجعل الضباب ينقشع عن حلم مجسّد . كان شأنها في ذلك شأن الراكض وراء السراب . ولكن ، بالرغم من تلاشي هذه العلاقة « الحبيّة » ، فقد سجَّل جبران مغامرة جديدة في تاريخه الغرامي ، وازداد عدد ضحاياه ضحية جديدة.

***

غيتريد پاري

غيتريد پاري ، عازفة موسيقى ، أحبها جبران منذ عام ١٩٠٦ ، وكان هذا الحب كاملاً روحياً وجسدياً . وقد أبقى هذه العلاقة طي الكتمان والسريَّة ، كي لا يثير حفيظة وغضب ماري هاسكل ، ودامت هذه العلاقة أكثر من عشرين سنة . وبسبب هذا الكتمان والسرّية ، غابت هذه المرأة عن ذاكرة الذين أرّخوا وكتبوا سيرة جبران.

بقيت علاقة جبران وپاري في ذمة التاريخ حتى عام ١٩٧٤ . ففي هذا العام أصدر خليل جبران ، وهو نحات من بوسطن وقريب لجبران ، بمساعدة زوجته روز، كتاباً بالانكليزية عن حياة جبران وعالمه . وإثر صدور الكتاب تلقى مكالمة هاتفية من استاذة في جامعة بوسطن ، وقالت له : « قرأت كتابك ، وفوجئت بخلوّه من ذكر خالتي **غيتريد پاري** التي كان لها علاقة جسدية بقريبك جبران ... وعندي عدد كبير من الصور التي تمثله وإياها ، وكذلك عندي مجموعة رسائل كتبها لها »[٢].

---

(١) روز غريب ، **مي بين التوهج والأفول** ، ص ٥٤ .

(٢) رياض حنين ، **جبران الوجه الآخر** ، بيروت ، دار النهار ، ١٩٨١ ، ص ٥٥ . لم تنشر هذه الرسائل حتى اليوم .

وفي حديث إلى مجلة **الحوادث** بتاريخ الثاني عشر من كانون الثاني ١٩٧٩ ، قال النحّات خليل جبران : « هرعت أنا وزوجتي لملاقاة هذه المرأة ، وإذا بنا أمام قصة جديدة أذهلتنا . ست وستون رسالة كتبها جبران بخط يده إلى پاري وهي مؤرخة بين ١٩٠٦ و١٩٢٧ . لقد كانت غيتريد إمرأة جبران الغامضة . لم يذكرها أحد حتى الآن »[١] . هذه المرأة أخفاها جبران عن عيون جميع الأنام وأبقاها سرّاً من أسراره مدَّة واحد وعشرين عاماً ، كي يحافظ على هالته أمام الرأي العام ، تلك الهالة النبوية التي ادعاها ، وأسدلها على نفسه.

وخلال لقاء خليل جبران وزوجته روز مع المرأة قالت لهما : « كذلك معي محرمة استعملها جبران بعد ممارسة الحب مع غيتريد ، احتفظت بها بين الرسائل والصور والرسوم والأشياء الخاصة ، داخل صندوق صغير » . وهذه الرسائل إلى غيتريد ـ يقول خليل ـ سأصدرها في كتاب ،سيتيح ادراك حقيقة علاقة جبران الجسدية بتلك المرأة.

أما جبران ، فلم يذكر غيتريد سوى تلميحاً عام ١٩٠٧ ، وذلك في رسالة بعث بها إلى جميل معلوف ، ومَن يدقق في هذه الرسالة ، يمسك رأس الخيط الموصل إلى جوهر علاقته بهذه المرأة . يقول جبران في رسالته : « اتصلت بي شاعرة أميركية مأخوذة بسحر الشرق ودعتني إلى العشاء ، فلم يسعني إلاَّ تلبية الدعوة . وكانت الداعية جميلة قلباً وقالباً ، ولها ميل طبيعي إلى استدرار محاسن الحياة ، وفي نفسها مجاعة إلى كل ما هو جميل ولذيذ . جلسنا إلى المائدة ، ولم يكن بيننا ثالث ، وكنا نأكل ونتحدث كيلا نحرم الآذان ما تتمتع به النواظر والأجواف ، حتى إذا ما انتهينا إلى اللحوم وتوابعها ، وبلغنا الحلويات والقهوة ، أشعلت سيكارة وصرت أرشف فنجاني رشفة وأمص ثغر

---

(١) المصدر نفسه .

السيكارة مصة ، وصديقتي تتأملني بلذة فائقة ، وعلى ملامحها ابتسامة تشابه ابتسامة الحقول لمجيء الربيع . ثم ألحقت السيكارة بسيكارة أخرى ، وملأت فنجاني ثانية لأن المحيط والحديث جعلا للتبغ والقهوة نكهة سحرية »[١].

إن جبران يلفظ كلمات فيها شبق ومدلول جنسي « أمص ثغر السيكارة » ، « ابتسامة تشابه ابتسامة الحقول لمجي الربيع » أي الحقول المتشوقة لفصل الخصوبة والاخصاب . هكذا كانت غيترود في تلك اللحظة التي يصفها جبران تبتسم لاخصابه اياها. ويتابع جبران حديثه فيقول : « وبعد سكينة فيها من الأقوال الخفية ما فيها ، حوّلت شاعرتنا عينيها نحو شيء غير منظور في فضاء الغرفة وقالت بهدوء : أتعلم يا جبران بأن هذه أوّل مرَّة تمنيت فيها أن أكون رجلاً . قُلت ولماذا ؟ قالت لأن الرجال يتمتعون بالحياة بلا خوف ولا وجل ، ويصعدون إلى قمم اللذات ، ويهبطون إلى أعماقها ، غير ناظرين إلى ما يقال عنهم . أما نحن النساء ، فنراقب بعضنا بعضاً ، وننتقد بقساوة جارحة ما نفعله حسناً كان أم قبيحاً . فنظرت إليها مستفهماً مستزيداً فقالت لو كنت رجلاً الآن لتمتعت معك يا جبران بلذة التدخين ، لأن رائحة هذه السكائر التركية ، وكيفية احراقك لها قد ولدتا في نفسي شهية عميقة . فقمت من مكاني اذ ذاك وفتحت علبة السكائر ووضعتها أمامها على المائدة ، وقلت مرمزاً بطريقة معنوية إلى أشياء كثيرة ، خُلقنا لنفرح ونتمتع بكل شيء في هذه الحياة على قدر ما ترسم الحكمة الكائنة في أعماقنا . فإذا ما امتنع الإنسان عن استخلاص اللذة من الكائنات كان هو الجاني على نفسه ، تعالي ندخن معاً ، ونتشبّه بالأيام التي تتخذ لها من أعمارنا سكائر تدخنها في السكينة »[٢].

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٦ .
(٢) المصدر نفسه .

ما أوضح التباين والتناقض بين ما يدعو إليه جبران كتابياً ، وبين ما يتلفظ به شفوياً ويمارسه عملياً ، فمعظم آرائه النظرية تدعو إلى التعالي من المحسوس إلا اللامحسوس ، إلى الكمال ، إلى الاقتراب من ذات اللّه ، وهو في هذه الليلة « الحمراء » يقذف بالإنسان الكامن في تلك المرأة من سماء اللامحسوس ، حيث تهيم النفس في الأثير ، إلى أرض المحسوس ، لإشباع نهم الجسد من الملذات والرغبات الترابية.

ويتابع جبران يقول في رسالته : « فأخذت شاعرتي سيكارة ووضعتها بين أصابعها اللطيفة البيضاء وأشعلت رأسها ، وأخذت تمصّها بلهفة ، وتتأمل دخانها المتصاعد كالخيوط الفضية . ولكنها ما بلغت آخرها حتى اصفرّ وجهها قليلاً ، فأسندت رأسها بمعصمها ، وبقيت شفتاها مبتسمتين . فقلت ، ماذا أصابك ؟ فأجابت بهدوء سحري ان رأسي ثقيل قليلاً ، ولكن نفسي مملوءة بالخيالات الشرقية الجميلة . تركنا المائدة وذهبنا إلى المكتبة ، وهناك جلست على مقعد بين المساند الناعمة ، وأنا أحدثها . وبعد ساعة مدَّت يدها الحريرية ولمست زراً كهربائياً بجانبها ، فجاءت إحدى الخادمات فقالت لها اعملي لنا ابريقاً من القهوة القوية يا جوزفين . فذهبت الخادمة وبعد هنيهة عادت بالقهوة . وإذ همّت بالرجوع أوقفتها شاعرتنا وقالت لها إن جاء أحدٌ ليزورني قولي له إني متعبة . ثم صبت من القهوة فنجانين ، وقالت مبتسمة أعطني سيكارة يا جبران ، فقلت قد يضرّك الاكثار بادىء بدء . فأجابت بهذه الكلمات البديعة : إن اللذة الحقيقية ، في هذه الحياة لا تصل إلينا إلاَّ عن سبيل الألم . وهكذا يا عزيزي صرفنا تلك الليلة بين السكائر والقهوة والشعر وما جانسه . وفي اليوم التالي كتبت إليَّ تقول : ابعث إليَّ بهدية من سكائرك . ففعلت مسرعاً ، وقد أهدتني لقاء ذلك قصيدة جميلة نظمتها في السكائر التركية »[١].

---

(١) الرسالة مأخوذة من رياض حنين ، **رسائل جبران التائهة** ، ص ٤٤ ـ ٤٥ .

يحاول جبران في هذه الرسالة التمويه والتضليل ، حيث يبدأ بأنه دُعي إلى عشاء في أحد أيام ١٩٠٧ ، بينما تاريخ رسالته الأولى إلى غيتريد يعود إلى عام ١٩٠٦ . يعني أن هذه الليلة جاءت بعد عام من بدء العلاقة بينهما ، ودليل على ذلك أنها كانت تخاطبه مخاطبة العشيقة للعشيق ، بلا ألقاب ، أو كلفة أو تصنّع . ولو كان صادقاً بأنه يتحدث عن الليلة الأولى ، لكان الحوار أكثر بروتوكولية . وليس هناك امرأة تبيح نفسها للرجل من اللقاء الأول ، خاصةً إذا كانت كهذه الشاعرة.

ويختم جبران رسالته إلى جميل المعلوف بتصويره تلك الليلة بأنها كانت يتيمة . جاءت اللحظة ، وذهبت بدون عودة ، بهدف اخفاء آثار العلاقة من ذهن صديقه، ومن ذهن الناس، متجاهلاً أن ذاكرة التاريخ لا تنسى إلَّا الأمور التي لم تولد من رحم الزمن.

هذا هو جبران خليل جبران الذي حمل لواء المرأة ، وألقى على ذاته ثوباً قشيباً من الطهرانية والرسولية . فمن هي الضحية التالية ؟ .

***

بربارة يونغ

كانت بربارة يونغ في الخامسة والأربعين من عمرها عندما سمعت باسم جبران لأول مرَّة ، عن طريق المسرحي بتلر دافنبورت . إنها شاعرة أميركية آلفت شعر جبران . كتبت له معربة عن العمق والارتفاع والاتساع التي أضافها «نبيّه» إلى وعيها. فردَّ عليها جبران داعياً إياها إلى مُحترفِه ليتحدثا عن الشعر وترى رسومه. ومنذ ذاك الزمن قويت أواصر الصداقة بينهما ، حتى إذا سبرت أغوار روحه وعرفت سرّ عظمته ووقفت على « مدى وعيه وعمق ادراكه ، أحبته حب المريمات ليسوع »[1] ؛ حبّاً بتولياً ، متجرداً من الرغبات والأهواء الدنيوية ،

(١) بربارة يونغ ، **هذا الرجل من لبنان** ، بيروت ، دار الأندلس ، ص ١٥ .

فصارت بربارة إحدى تلميذاته المؤمنات به وبرسالته ، المبشّرات بتعاليمه ، الناشرات حكمه وأقواله . « فرغبت في أن تعرف منه وعنه أكثر ما تستطيع لتكتب للناس عنه شيئاً ، فأبدت له رغبتها ، فراقه ذلك منها ، وصار يحدثها عن نفسه وهي تسمع وتعي وتكتب ، وظلت تسمع وتعي وتكتب سبع سنوات من عام ١٩٢٣ حتى عام ١٩٣١ ، اللحظة التي مات فيها »[١].

في العاشر من نيسان عام ١٩٣١ ، ألمّ بجبران عارض خطر ، فنقل إلى مستشفى « سانت فنسنت » . ولحظة أحس باقتراب ملاك الموت ليحمله على أجنحته إلى ما وراء الأفق الأزرق ، « طلب منها أن تبقى معه لتخفف مرارة الكأس التي كان مزمعاً أن يحتسيه . قال لها : لا تتركيني . فلم تتركه .. حتى إذا انقطع الأمل في شفائه ، وفقد وعيه استدعيت أخته مريانا ، واستدعي أصدقاؤه»[٢].

جاءت بربارة يونغ إلى لبنان عام ١٩٣٩ « لتجمع ما تبقى من خيوط صديقها الحبيب . فزارت بيروت ، ومدرسة الحكمة ، وبشرّي ، ودمشق ، واتصلت بكثيرين من أصدقاء جبران ورفاق حداثته وصباه ، وأخيراً أصدرت كتابها عنه **هذا الرجل من لبنان**»[٣] . كانت بربارة يونغ بمثابة الأم والتلميذة في آن لجبران ، والمتعبّدة في محرابه . تحنو عليه حنوّ الأم الرؤوم ، وتعجب به اعجاب التلميذة الفخورة ، وتمتثل لأقواله امتثال المتعبدة المطيعة لإرادة الرسول.

وكان جبران ، بدوره ، يستشيرها في مشاكله الاجتماعية ، ويتكل عليها في الشؤون الأدبية ويرتاح إلى تعازيها في أزماته الصحية ، ويراها جنب سريره إبّان حالات المرض . وطيلة هذه السنوات السبع ، ملأت بربارة يونغ الفراغ الذي تركته ماري هاسكل .

***

(١) المصدر نفسه ، المقدمة .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٥ .

ماريتا لوسن

ماريتا لوسن كانت آخر وجه يراه جبران في أيامه الأخيرة ، قبل لحظـات من غيابـه في مستشفى « سانت فنسنت » ، وهـي أميـركيـة الجنسية ، اسبانية الأصل.

اسمها الحقيقي ماريتا دلكار، وبعد زواجها دعيت ماريتا لوسن.

« وهي امرأة قصيرة القامة ، وإن لم تكن جميلـة الوجـه فهي ليست بشعـة . رافقت جبران أعـواماً كـ « مـوديل » بحكم نفسيتهـا الطيبة الشاعرة من جهة ، ولتناسق أعضاء جسمها الملائم لريشة الفنان من جهة أخرى »[1] . إن ماريتا لوسن هي نموذج الأجساد الأنثوية التي رسمتهـا ريشة جبـران ، مستوحـاة من جسدهـا الجميل السـاحر . والرسائل المتبادلة بينها وبينه ، تكشف أن العلاقة كانت بالنسبة إلى جبران أكثر من « موديل » . كانت صديقـة ورفيقة وشـريكة « يهجس إليها في أوقاته الحرجـة ، ويشكو لهـا ويصارحهـا أيضاً بـالجوانب الحميمـة من حياتـه ، ويحترم عـلاقته بهـا ويقدّرهـا » . وهي المرأة الوحيدة من النساء اللواتي مررنا في حيـاته التي ربطتـه بها عـلاقة انسانية سامية خلت من العواطف العشقية أو الشهوات الجسديـة ، وأفعمت هذه العلاقة بالعواطف الأبويـة العميقة . فهي كـانت تناديـه « عمي جبران » وكتبت كتاباً من وحيه ضمّنته رسائله إليها تحت عنوان **عمي جبران** . وجبران كان يبادلها هذا التحبب بالمثل.

في التاسع عشر من تموز عام ١٩٢٠ كتب إليها يقول : « الأميرة التي تعيش في البرج العاجي يجب أن تكون قويّة لتحمل عبء تاجها وصولجانها ، ولتحكم مملكتها الشاسعة »[2] . وفي رسالته المؤرخة في

---

(١) رياض حنين ، **رسائل جبران التائهة** ، مصدر سابق ، ص ١٣٩

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٥٢ .

الرابع عشر من آب ١٩٢٠ قال لها : « نود أن ترتقي وأن تنمي وأن تكوني شخصية مدهشة ، لأننا نعتقد أنك تستطيعين أن تفعلي ذلك »[١] . وفي السابع عشر من آب خاطبها بالقول : « أنت تريدين أن تكوني صغيرة حلوة ، لكنك صغيرة حلوة سواء شئتِ أم أبيتِ . طبعاً انك تحاولين بشيء من الجهد أن تكوني إمرأة نامية مكتملة الريش ، وإني أخشى أنك لن تنجحي حتى أغادر هذا العالم إلى العالم الآخر »[٢] . تنم هذه الرسائل عن روح الأبوّة المسؤولة ، وكأنه أب مرشد يوجه ابنته القاصرة إلى الطريق الصحيح ، وينير فكرها بآرائه ومعتقداته . ومردّ ذلك يعود إلى ماريتا نفسها ، التي آمنت بجبران « النبي » ، بجبران « يسوع ابن الانسان » ولم تؤمن بجبران الانسان ، جبران اللحم والدم والعصب . وهذا الايمان جعل جبران يهتم بالحفاظ على تلك الصورة المرتسمة عنه في مخيلتها ، ولو فعل غير ذلك ، لكان مسخاً وخسر إيمانها به.

والرسالة التالية تظهر مدى حرصه على شخصيته المثالية ، المحبَّبة لدى ماريتا لوسن. يقول في هذه الرسالة: «لا يا ماريتا، لست عمًّا غير صالح . لكن فقط لا أتوافق مع الوقت ، أعتقد أنه يجب أن تفهمي ، يجب أن تفهمي حتى سكوتي الطويل . تعرفين كم أنت عزيزة بالنسبة إلي . وعندما أتوقف عن الكتابة ، هذا لا يعني أن معزّتي لك خفّت ، وذلك يعني فقط أنني إمّا مريض أو أنه طرأ شيء مفاجىء منعني عن الكتابة »[٣].

وعن بداية العلاقة تقول ماريتا : « انها قرأت اعلاناً في إحدى الصحف ، يطلب فيه رسام فتاة « للعمل لديه كموديل »[٤] .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٦٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٤ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المعلومات عن ماريتا وأقوالها مستقاة من مجلة **الحوادث** ، ١٩٨١/٢/١٠ .

قرأت ماريتا الاعلان ، وسارعت إلى إخبار والدتها وأبلغتها بأنها ذاهبة إلى عنوان الرسام ، لعل الوظيفة تكون من نصيبها . كانت مع والدتها قد وصلتا حديثاً من إسبانيا إلى نيويورك ، ولم يكن عمرها يتجاوز السادسة عشرة . وفي اليوم التالي توجهت إلى العنوان المذكور في الصحيفة . وتقول « قرعت الباب ، ففتح لي رجل ، بدت عليه الدهشة للوهلة الأولى ، لكنه سرعان ما رحَّب بي ، ودعاني إلى الداخل ، متسائلاً : ما إسم الحسناء الصغيرة ، وماذا تريد ؟ أجبته بصوت خافت خجول : ماريتا دلكار . ألست أنت الرسام صاحب الاعلان الذي يطلب فتاة للعمل لديه كموديل ؟ . التفت إلي وقال إن كل هذا الإسم لهذه القامة القصيرة ، قطعاً لست أنا ، قد أخطأت في العنوان » . وفعلاً لم يكن جبران صاحب الاعلان ، إنما كان جاره الرسام « كالدير » . ولكن كما يقول المثل « ربَّ صدفة خير من ألف ميعاد » ، اذ سرعان ما نشأ نوع من التعاطف والثقة بين جبران وماريتا تحوّل مع الزمن إلى علاقة من نوع خاص ، فأصبحت فيما بعد أشبه بكاتمة أسراره بالاضافة إلى كونها موديلاً له.

تصف ماريتا جبران بأنه عذري في علاقته معها وتقول بأنه « يخاف النساء ويتهرّب من الحب الجسدي ، وقد كانت شاهدة على عذريته في كثير من الحالات . كانت علاقته بعيدة عن الجسد ، قريبة من الروح والعاطفة . وتؤكد ماريتا أن جبران كان يكره الجنس ، وكان خجولاً جداً أمام النساء ، وحريصاً على عدم تدنيس العلاقة الروحية بالوصال الجسدي » . رأت ماريتا جانباً واحداً من شخصية جبران ، وبقيت جاهلة الجوانب الأخرى . فلو علمت بعلاقاته مع ميشلين وغيترود پاري وماري خوري وغيرهن ، لكانت غيَّرت الكثير من أرائها وقناعاتها بشأنه . تبقى حقيقة لا مجال للشك فيها ، وهي أن ماريتا لوسن قد تكون المرأة الوحيدة التي كانت تصغر جبران سناً ، لذلك غلّفت علاقتها به بمسحة طفولية حتى النهاية.

الفصل الثالث

جبران وعقدة أوديب

كل الذين درسوا نتاج جبـران الأدبي والفني لاحظوا بـوضوح تقديسه للمرأة عامةً ، وتعبُّده للأم وللأمومة خاصةً.

وتعليل هذا التقديس وهذا التعبد دين جبران للمـرأة عمومـاً ، وبنوع خاص لأمه التي أعطت في حياتها مثالاً عن البطولة التي كان يفتقر إليها والده خليل ، فهي التي كابدت مشقّة السفر إلى الولايات المتحدة سعياً وراء رزق عيالها الأربعة.

نشأ جبران في عصـر مختل المقـاييس والقيَم ، يسيطر عليـه الفساد السياسي ، ويستبد به الظلم ، يفتـك قويّـه بضعيفه ، وغنيّـه بفقيره ، ويتحكم فيه الأمير والاقطاعي ورجل الدين بأبناء الرعية ، إلى جانب ذلك التقليد الاجتماعي الذي سلب المرأة إرادتها وانسانيتها ، وتصرَّف بها تصرف القنية والمتاع ، وتركها رهينة البؤس والشقاء.

خليل جبران ، ملتزم عدّ الماعز ، الممعن في إدمان السكر ، كان شرس الطباع ، قاسي القلب على زوجته وأطفاله ، وعلى خصام دائم معهم ، يسيء معاملتهم ، مما ولّد الخوف في قلوبهم ، وهذا الخـوف جعلهم يزدادون محبة لأمهم.

أما كاملة رحمة ، هذه المرأة المرهفة الحس ، فكانت على نقيض زوجها الثاني خليل جبران تتحمّل مسؤوليتها على أكمل وجه « وقابلة للتضحية بالذات متساهلة مع أولادها ، طموحة في سبيل مستقبلهـم .

هكذا أمضى جبران حياته الباكرة في جو يسوده الفقر المدقع والمخاصمات العنيفة بين أم مظلومة وأب سكير »[1] . عاش جبران بين حنان الأم وقمع الأب المستبد به ، خاصةً عندما كان يراه يرسم على الورق أو الجدران . وكلما نال ضرباً أو تعنيفاً من الأب الظلوم ، لم يكن يجد سوى صدر الأم ، ملجأ وبلسماً لجراح الذات الجريحة .

كاملة رحمة «تميزت بذكاء حاد على الرغم من ثقافتها المحدودة في زمن كانت تربية البنات فيه عملاً عديم الفائدة ومسيئاً لطباعهن وأنوثتهن . كما كانت تتمتع بإرادة قوية وهمة لا تعرف الكلل ، ساعدتاها على تدبير شؤون أولادها، مضحية في سبيلهم بكل ما تستطيع»[2]. هذا الواقع جعل جبران طوال حياته ، يشعر بتعطش دائم إلى عطف الأم وحنانها وإلى العائلة والبيت.

ففي حالة كهذه الحالة ، وترعرع الطفل في كنف ورعاية أم تحنو عليه كثيراً « تحتفظ عقدة أوديب بسلطتها عليه وتجعل من صاحبها شخصاً منعزلاً عن المجتمع ، خجولاً في حضور الفتيات »[3].

وتعلق الطفل الطاغي بشخص أو بشيء أو بعقيدة، هي عقدة نفسية ، أي حالة انفعالية تسيطر عليه.

يقول خريستو نجم في كتابه **المرأة في حياة جبران** : « ان نشأة جبران الوضيعة جعلته يعاني مأساة القهر والطبقية . كان له من أبيه ما يصدُّ عن التماهي بالأب ـ البطل . فاكتفى بأمه يتحد بها ويتقمصها حتى تكونت شخصيته الرقيقة على حساب الرجولة التي يستمدها الأطفال عادة من اعجابهم بالأب المثالي . فجبران الذي كان يعاني من تجاذب الحب والبغض ازاء والده لم يكن غريباً عن العقدة الأوديبية

---

(١) خليل حاوي ، **جبران في إطاره الحضاري** ، مصدر سابق ، ص ٩١ .
(٢) مصطفى علم الدين ، **نبي جبران وزرادشت نيتشه** ، مصدر سابق ، ص ٢٢ .
(٣) روز غريب ، **مي زيادة : التوهج والأفول** ، بيروت ، مؤسسة نوفل ، ١٩٧٨ ، ص ٤٦ .

التي جعلته يتماهى بأمه »[1] .

فحب الأم ، أو « عقدة أوديب » في الأسطورة اليونانية ، هو « رذيلة تهدد سلامة جنسنا العقلية بأكملها » يقول د.هـ . لورنس ، و « علينا أن نطلق العنان للوعي الأعلى ، وأن نحطم رباط الحب القديم المشتاق المتصل بالسرَّة ».

ولكن حب الأمومة وحده «ينشر حول الطفل عالماً من الثقة مفهوم المعنى ويرفعه كمنطقة مضاءة من خلفية الظلمة والمبهم »[2] .

ويورد د.هـ . لورنس في كتابه **أبناء وعشاق** حالة شبيهة بحالة جبران ، حالة بطله بول مورل ، فيقول : « أمه التي ماتت كانت في حقيقة الأمر دعامة حياته ، هي التي أحبها . وقد واجها كلاهما الحياة معاً . والآن وقد ذهبت ، وستظل وراءه دائماً هذه الفجوة في الحياة ، هذا المزق في الحجاب ، تتسرب منه حياته على مهل وكأن قوة لا تغالب تجذبه نحو الموت . إنه في حاجة إلى انسان أخر يقدِّم له العون من تلقاء نفسه ، ويشد ازره بمحض رغبته . الأشياء الأقل شأناً بدأ يدعها تذهب عنه ، من فرط خشيته لذلك الشيء الكبير ، ذلك الزلل نحو الموت في أعقاب محبوبته »[3].

نستدل من ذلك ، ان الطفل المصاب بعقدة أوديب ، « يكبت حبه لأمه ، بأن يضع نفسه مكانها ، وبأن يمثل نفسه بها ، وبأن يتخذ من شخصه هو نموذجاً بواسطة المشابهة التي يهتدي بها في اختيار موضوع حبه . وبذلك يهرب بالفعل من النساء اللاتي يمكن أن يتسببن له في أن يكون خائناً لأمه»[4]. هكذا كان جبران، فحبّه لأمه لم يمت

---

(١) خريستو نجم ، **المرأة في حياة جبران** ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٩٥ .
(٢) فؤاد رفقه ، **الشعر والموت** ، بيروت، دار النهار ، ١٩٧٣ ، ص ٤٤ .
(٣) د.هـ . لورانس ، **ابناء وعشاق** القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٧٠ ، ص١٧٩ .
(٤) فرويد ، **التحليل النفسي والفن** ، بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٧٩ ، ص ٤٨ ـ ٤٩ .

بموتها ، لأنه كان «دائماً يلتقي بنساء كل منهن تمثل جانباً من الجوانب التي كانت تعنيها له أمه . كن يساعدنه ، ابتداءً من أختيه سلطانة ومريانا . لقد كانتا مع والدتهما يضحين مالياً لكي يظهر بثياب لائقة كالتي وصفها »[1] لماري هاسكل ، وانتهاءً ببربارة يونغ .

عجز جبران عن التخلُّص من الحالة الأوديبية ، واستحال عليه أن يحب امرأة أخرى غير أمه رغم اكتمال رجولته فسيولوجياً ، وتمام كل مظاهرها ومقوماتها . وعقدة أوديب هي التي دفعته إلى اختيار معظم معشوقاته ممن يكبرنه سناً :

- حلا الضاهر تكبره بسنتين ،
- سلطانة ثابت بخمس عشرة سنة ،
- ميشلين ببضعة شهور ،
- ماري هاسكل بعشر سنوات ،
- ماري خوري بتسع سنوات ،
- ماري قهوجي بأربع سنوات ،
- مي زيادة بثلاث سنوات .

خلط جبران بغير وعي بين حبه لمحبوباته وحبِّه لأمه ، فيخاطبُهن وكأنَّه يخاطب أمَّه ، لأن الحب المكبوت يفعل فعله في مثل هذه الحالات . ففي معظم رسائله يخاطب ماري هاسكل « أقبل يدك بجفني يا أم قلبي العزيزة » ؛ « يداك الإلهيتان وهبتاني الحياة الفضلى ..» ، « ما أعظم الوجود « معك » و « فيك » و«حولك »!، « هكذا أنتِ أُم هذا الكتيب بشكل من الأشكال » ، « لقد أجزل اللّه لي العطاء عن يدك . ويا لها من بركة أن تكوني يداً من أيدي اللَّه » . فماري هاسكل كانت بالنسبة له التجسيد الحي لأمه وهذا ما حداه للتشبث بطفولته لاإرادياً . ويصف حبّه لسلمى كرامي بقوله : « وذهب الربيع وجاء الصيف ومحبتي

---

(١) سهام خلوصي ، جبران والمرأة ، بيروت، **الكفاح العربي** ، العدد ١٤٧ ، ٦/٤/١٩٨١.

لسلمى تتدرج من شغف فتى في صباح العمر بامرأة حسناء ، إلى نوع من تلك العبادة الخرساء التي يشعر بها الصبي اليتيم نحو أمه الساكنة في الأبدية » . ويقول لماري خوري « قد تمسكت بأذيالك ، كطفلٍ يلاحق أمه » .

اذن ، كانت عقدة أوديب تطارده مع كل امرأة يحبها . وفي كتاباته وأحاديثه ، توق شديد إلى عطف الأم وحنانها.

في ٢٤ آذار ١٩١١ ، يقول لماري هاسكل : « أرادني والدي أن أصبح محامياً . أما والدتي فعلى العكس ، كانت حنوناً قريبة إلى قلبي ونقّادة أيضاً . وقد شجعتني على الدوام »[١] . وفي ٣١ آب ١٩١٨ يقول : « ما عهدتُ والدتي لنفسي في أدنى دركات كيانها، أقلَّ من شقيقة ، ولا في أعلى درجاته أقل من سيد . لقد أفهمتني حتى في سني الثالثة ، أن الرابطة بيننا كانت كما هي بين اثنين من الناس ؛ رابطة حب متبادل ، وأننا كائنان منفصلان جمعتهما معاً يد الحياة والشرف.

كانت والدتي أعجب كائن عرفته في حياتي ، بوسعي رؤية وجهها الآن ، على غاية الرقّة ، وقد غدا أكثر جمالاً »[٢].

لم يذكر جبران من أمه شيئاً سوى أمومتها له ، أمومتها لذاته الباطنية . قال: في ٣ أيلول ١٩٢٠ « كانت والدتي تأتي أموراً صغيرة من شأنها أن تدربني على حب الآخرين معها ... لقد حرَّرتني من ذاتها . وفي سني الثانية عشرة قالت لي أموراً لم أتحققها إلا اليوم »[٣] . ويضيف : « لقد كانت أمي ولم تزل أماً بالروح ، وإني أشعر اليوم بقربها مني وتأثيرها علي، ومساعدتها لي أكثر مما كنت أشعر به

---

(١) ماري هاسكل ، **نبي الحبيب** ، مصدر سابق ، ج ١، ص ٣٩ .
(٢) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٧٧ .
(٣) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٤.

قبل أن تذهب ـ أكثر بما لا يقاس »[١] . رغم الانفصال والابتعاد بين الأجساد ، فإن كاملة رحمة ، الميتة بالجسد ، ما زالت حيَّة بالروح في لاشعور ابنها جبران ، قريبة من روحه ، تسدِّد خطاه ، وتسدل عليه أجنحة خفية لتقيه محن الأيام . وعما ورث عنها من مميزات يقول لمي زيادة : « ... فقد ورثت عن أمي تسعين بالمئة من أخلاقي وميولي . لا أقصد بذلك أنني أماثلها من حيث الحلاوة والوداعة وكبر القلب ... ومع أنني أشعر بشيء من البغضاء نحو الرهبان ، فأنا أحب الراهبات وأباركهن في قلبي ، وقد يكون حبي لهن ناتجاً عن تلك الرغائب السريَّة التي كانت تشغل خيال أمي في صباها »[٢].

كاملة رحمة التي بقيت حيَّة في أعماق ابنها جبران ، وفي لاشعوره ، حدَّدت مسار حياته ، وحدَّدت سماتها ، وبات يراها مجسَّدة في كل امرأة أحبها . في ٧ تشرين الأول ١٩٢٢ ، يقول لماري هاسكل : « أنتِ وأنا ، واحدنا أم للآخر ، وأحسّ في نفسي بعض الأمومة نحوك ، وأشعر بكل تأكيد كأني أبٌ لك . ولا شك أنك تشعرين أنتِ أيضاً ببعض الأمومة نحوي»[٣] ازدواج الشخصية بيِّن جلي في هذا القول. فالتماهي بالأم ، وتقمص شخصيتها ، يقابلهما تماهيه الضعيف بالأب ـ الرجل . وشعوره نحو هاسكل « يعادل شعور ولد بار نحو أمه ، فيما هو بحاجة إلى أنفاس مضطربة ، وعينين وهاجتين تحرك قلبه فلا يتناوم خفوته »[٤].

ماري هاسكل ، بالنسبة لجبران ، كانت بديل الأم . وهكذا كانت جورج صاند بالنسبة لألفريد دو موسيه، الذي خاطبته قائلة: «نعم يا

---

(١) الكزبري ، **الشعلة الزرقاء** ، مصدر سابق ، ص ٨٣ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) هاسكل ، **نبي الحبيب** ، مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ٩٢ .
(٤) جبر ، **جبران في حياته العاصفة** ، مصدر سابق ، ص ١٠٤ .

حبيبي ، عندما تعذبني هكذا تغدو في نظري كالطفل المريض ، وتزيدني رغبة في مداواتك لكي أعثر على الرجل الذي أحببته فيك مجدداً . أرجو من إله الأمهات والعشاق أن يساعدني على انجاز المهمة الشاقة »[١].

الأم هي مثال الله لدى جبران . وها هو يقول في **الأجنحة المتكسرة**: « إن أعذب ما تحدثه الشفاه البشرية هو لفظة **الأم**، وأجمل مناداة هي **يا أمي** . كلمة صغيرة كبيرة مليئة بالأمل والحب والانعطاف وكل ما في القلب البشري من الرقة والحلاوة والعذوبة . الأم هي كل شيء في هذه الحياة ، هي التعزية في الحزن ، والرجاء في اليأس ، والقوة في الضعف . هي ينبوع الحنو والرأفة والشفقة والغفران ، فالذي يفقد أمه يفقد صدراً يسند إليه رأسه ويداً تباركه وعيناً تحرسه..».

واحتلت الأم في فن جبران الحَيز الأكبر في رسومه . فلوحة « الوجه الأزلي » تمثل وجهاً كبيراً وفي وسطه رجل قزم وامرأة تحمل مشعلاً (وقد رمز فيه إلى نفسه وهو يشق طريقه إلى العلا على هدى مشعل ماري هاسكل)، ونشر وجهاً في مجلة **الفنون**، هو وجهها في حالة الألم النفسي، ورسم « نحو اللانهاية » في أول صفحة من كتابه **عشرون رسماً** ، هو وجهها أيضاً.

كما أن هناك عشرات الرسوم التي تمثل الأم، والأمومة ، المرموز اليها أحياناً بالأرض والبحر ، إضافة إلى الكثير من كتاباته التي تتحدث عن الأم.

إن عقدة أوديب ، أو عشق الأم ، تركت آثارها على علاقاته النسائية ، وهي التي ألقت بظلالها على شهواته الجسدية وقمعتها ، وحالت دون تسربها إلى الخارج .

---

(١) الكزبري ، **جورج صاند** ، مصدر سابق ، ص ١٨٠ .

الفصل الرابع

جبران والزواج

الاضطراب العائلي الذي يعيشه المرء في طفولته ، يحمله في الكبر على كراهية الحياة العائلية . حيث أن النزاعات المستمرة بين الأب والأم ، تمتد « إلى الأولاد وتروي قصة آلامهم النفسية »[1] والمصاب بعقدة أوديب معرض للانهيار أمام كل اختبار جنسي ، لأن الزواج بالأم من المحرمات . فهو يرى في المرأة التي يحبها ، وبطريقة لاشعورية ، صورة أمه .

وجبران ، المصاب بعقدة أوديب ، لم يكن بوسعه « أن يرى الزوجة التي عليه أن يقوم بواجباته تجاهها ، كما لم يكن بوسعه أن يقوم بمهمة الأب وهو الذي رفض أباه والوظيفة الأبوية ، وتتصف مشاعره نحو المرأة بالحنين إلى سعادة الطفولة والرعاية الأمومية»[2]. وبيئته العائلية المضطربة دفعته إلى إعادة النظر في أسس الزواج وتحديد العلاقة بين الزوجين.

كانت ماري هاسكل تأمل في أن يتزوج جبران ، لأن الزواج حسب رأيها اختيار عظيم . فقد جاء في يومياتها : « رجالات هذا العصر الذين أتوا بباهر الأعمال جميعهم متزوجون ، إلا أن خليل ، على ما

---

(١) علم الدين ، **نبي جبران وزرادشت نيتشه** ، مصدر سابق ، ص ٣٨ .

(٢) ناهدة طويل ، **شخصية جبران** ، ص ٥٧ .

أعتقد ، لم يحقق شخصيته كفاية التحقيق بعد . فيوم يتم له هذا ويوم **سيظفر بالحياة** حينئذ ربما يتزوج . فالحب والاستمرار فيه ، مع صرف النظر نهائياً عن الزواج ، ينطوي على صعوبة استحسنتُ أن أصارحه بها على الفور »[١].

إن معظم الفلاسفة ورجال الفكر ، بعكس ما تقول هاسكل ، يفكرون بالتخلّص من الإكراه ، من الانزعاج ، من الضجة والضوضاء والمشاغل الحياتية التافهة ، وينشدون الصفاء الذهني ، والاندفاع وراء خيالاتهم « والتحليق في أفكارهم » . ولهذا نراهم يرتعبون رعباً شديداً « من الزواج ومن كل ما من شأنه أن يسوقهم إليه ؛ من الزواج بوصفه عائقاً حتمياً يعترض طريقهم نحو الوضع الأمثل »[٢].

يقول نيتشه : « الحب أبرز ما في حياة المرأة ، وإنما مجدها وشرفها يدفعانها إلى أن تمثل الدور الأول في الحب **بالزواج** وأن تهب كيانها كلّه جسداً وروحاً للرجل الذي تصطفيه **زوجاً لها** . إنها تفتش عن سعادتها في الانسلاخ عن إرادتها الخاصة »[٣].

وقد لاحظ نيتشه أن الفطرة البشرية تجد في الحب الصحيح « حافزاً يشدها عبر غريزة الانتخاب الى الاتصال بين الزوجين ، بحيث يدعم أحدُهما الوهن في بنية الآخر . أما مفهوم الزواج فهو في جوهره غباوة تفصح عن جهلهم للحقائق ؛ إنه تحكم اللذة اليائسة في روح الزوجين ؛ إنه ذلك الدنس يتمرغان في أوحاله ؛ إنه ذلك الخواء الروحي الذي يجمع بينهما، ولكن جهلهما يجعلهما يريان فيه الرباط المقدس الذي عقدته السماء بينهما »[٤] . ونيتشه يطلب من المرأة الوفاء والشرف في

---

(١) هاسكل ، **نبي الحبيب** ، مصدر سابق ، ص ٤٤ .
(٢) نيتشه ، **أصل الأخلاق وفصلها** ، مصدر سابق ، ص ١٠٥ .
(٣) ليشتانبرجر ، **نيتشه** ، بيروت ، دار بيروت ، ١٩٥٤ ، ص ٨٤ .
(٤) علم الدين ، **نبي جبران وزرادشت نيتشه** ، مصدر سابق ، ص ١٤٧ .

حبها للرجل ، رغم قوله أنها لا تعرف من الوفاء والشرف إلا يسيراً ، « مضحيةً في ذلك لتعطي للعالم الانسان المتفوق » [1] . ويرى أنه من الجهل والحماقة السماح للأفراد الأرقى بالزواج عن حب ، « فنسمح للأبطال بالزواج من خادمات ، وللعباقرة بالاقتران بالخاطئات »[2].

أما جبران فينحو منحى معاكساً لنيتشه ، ويرى أن الزواج نتيجة طبيعية تعقب الحب الذي يسبقه . وهذا ما عبر عنه في جميع قصصه ، واعتبر الزواج الذي لا يسبقه حب وتناغم عاطفي ، باطلاً يورث الخوف والتعاسة والجناية . وحسب وجهة نظر نيتشه ، فإن « الزيجات التي تتم عن طريق الحب تتولد عن الخطأ أباً وعن الحاجة أماً »[3] ، ولم يـر من الـزواج سوى غـاية التنـاسل وحسب . ورغم هـذه الآراء فقـد قـال لمالفيد فون مايزنبورغ عام ١٨٧٤ : «ما أتمناه الآن أقول لك بسريَّة هو أن تكون لي زوجة بأسرع ما يمكن »[4].

على الجانب النقيض يقف وليم بلايك ، الرجل الثاني الذي أثّر على جبران بعد نيتشه. وليم بلايك، شاعر ورسّام رحب الخيـال ، كثير التـأمل والتفكير ، أوجد لنفسه سماءً خاصة من الفن والخيـال ، فهو يحلّق فيها دائماً وكأنه يعيش في عالم آخر غير عالم الناس حوله ، وهذا ما حدا بزوجته لإعلان التذمر والشكوى . لم تتعاطف مع آرائه المثالية في حرية الحب ، « وقاومت تلك الآراء في اصرار، وكان ذلك عند بلايك في أول الأمر انكاراً للروح غير متوقع مما هزّه في العمق ، بل بدا في وقت ما كأنما حطم ثقته بنفسه . وسرعان ما وجد الحل المقنع لهذا ، وبـذلك قضى بقيـة حياتـه مـع زوجتـه في سعـادة لا تعكـر الغيـوم

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٤٨

(٢) مصطفى غالب ، **نيتشه** ، بيروت ، مكتبة الهلال ، ١٩٧٩ ، ص ١٠٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٧ .

(٤) بانكو لافرين ، **نيتشه** ، بيروت ، المؤسسة العـربية للـدراسـات والنشـر ، ١٩٧٣ ، ص ٧٨ .

سماءها »[1] . ولم يعرف بلايك من النساء غير زوجته ، تفهمه ويفهمها . وقد تمنى جبران أن يكون له مثل هذه الزوجة ، وحياة عائلية كحياة بلايك.

وكولردج ذاق مرارة الفشل فى الزواج ، والاحساس « بالارتباط بامرأة لا تفهم من حياته الداخلية شيئاً مما زاد في مرارته عندما أحب سارا هتشنسون التي كانت تتمتع بكل ما يعوز زوجته من خصائص »[2].

جبران لم يتزوج ، ولا رغب في الزواج ، كما مرَّ معنا في حالة نيتشه وبلايك وكولردج ، إلا أنه عاش نظرياً في هذه الأجواء . وما طلبه الزواج من أكثر من امرأة ، إلا تعبير فارغ عن حبه واخلاصه لها.

عقب عودته من باريس ، صارح جبران ماري بحبه ، وبأنه يود الزواج منها . وقد رفضت هي العرض ، لأنها كانت تدرك بحدسها الأنثوي أنه لا يعني ما يقول ، وادعت أن فارق السن يشكل عائقاً في طريق زواجهما.

تقول ماري في يومياتها : « ان قضية سني هي العقبة التي تعترض زواجنا المرتبك . فكبر سني ليس بحد ذاته هو المانع ، بل الحقيقة هي أن خليل ينتظر حباً غير الحب الذي يكنه لي - هو الحب **الرؤيوي** ، وذاك سيكون زواجه ومنه سيستوحي أعظم أعماله ، وفيه سيجد سعادته الكبرى وحياته الجديدة الكاملة »[3].

وطلب جبران الزواج من مي زيادة أيضاً ، إلاَّ أن مي اعتذرت عن قبولها طلبه والسفر إليه.

---

(١) موريس بورا ، **الخيال الرومانسي** ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ ، ص ٤١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٢ .

(٣) هاسكل ، **نبي الحبيب** ، ج ١ ، ص ٤١ .

وآراؤه حول الزواج متناقضة . فبعد اعلانه أن الزواج الكامل هو الذي يسبقه علاقة حب ، يقول لماري هاسكل : « لِمَ تلفت النسوة غير المتزوجات الأنظار أكثر من المتزوجات ؟ ترين أن امرأة تتدفق حياة ونضارة وهي في سن الخامسة والعشرين ، ثم تتزوج رجلاً مليئاً بالحيوية والجاذبية أيضاً . ولما تلتقين بهما بعد خمس سنوات ترين المرأة وقد ذبلت جاذبيتها ـ لا جسدياً بل ككيان وحياة »[١] ، وأبدى اعتقاده بأن الزواج في الغالب يكون فاشلاً.

ووضع جبران أسساً للزواج الناجح ، فقال : « أضمن أساس هو الصداقة ، والمشاركة بالمصالح المتبادلة الواقعية ، والمقدرة على معالجة الأفكار معاً ، وتفهم الواحد آراء الآخر وأحلامه . وبدون هذه الأحلام المشتركة ، تغدو الحياة الزوجية شبه **مطبخ** بالنسبة إلى حياة الفرد »[٢] .

ويدعو جبران إلى العطاء الذي يشكل أهم أركان البناء الزوجي فيقول : « ثم ينبغي عدم نسيان أن البشر كائنات منفصلة أبداً ... فالمرحلة السابقة للزواج فترة ممتازة ، فيها يتقارب الفريقان واحدهما من الآخر ، ويتباحثان في شتى نواحي الحياة ، ويستقرىء واحدهما نوايا الآخر ، ويزداد واحدهما تفهماً للآخر »[٣].

ولا يقتل الزواج إلاَّ الاتصال المستمر بين الزوجين . ولهذا يرى أنه لا بد للزوجين من فترة يستريح واحدهما من الآخر. في أحد الأيام سألته إحدى النساء « لماذا لم تتزوج » ؟ . فأجابها : « الأمر جد بسيط . فلو كانت لي امرأة وكنت أرسم أو أنظم لنسيت وجودها أياماً بلا انقطاع ، وأنت تعرفين جيداً أنه لا توجد امرأة مهما كان مبلغ حبها

---

(١) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٤ .
(٣) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٦٢ ـ ٦٣ .

لزوجها تستطيع احتمال زوج من هذا الطراز طويلاً »[١].

على الرغم من علاقاته النسائية العديدة ، فقد بقي جبران يفتقد المرأة الوحيدة التي بإمكانها أن تغنيه عن كل النساء ، وتكون زوجة وشريكة حياة.

وأي تنافر روحي وفكري بين الزوجين، يعتبر زنىً تحت ستار من الشرعية البالية . وثمرة مثل هذا الزواج ستكون فاسدة ، لأن « المجرمين والتعساء والخاملين هم أبناء النفور الروحي بين المتزوجين ».

لا يقرّ لنظرته قرار ، فهي تتراوح بين السلبية حيناً والإيجابية أحياناً في معظم مواقفه الاجتماعية ومعتقداته وآرائه العامة . ففي الوقت الذي سمعناه يطالب بالحب لإنجاح الزواج ، نسمعه يردِّد في أذني صديقه يوسف الحويك ، لدى رؤيته شاباً وفتاة متحابين ويشبكان أيديهما بعضهما ببعض : « ما عساهما يخبران ؟ أشياء تافهة ولا شك ... مقطعاً من نشيد الحب الأزلي ... مقدمة لسكرات الحب . وعندما تبرد العاطفة ، بعد هذه النار المتأججة ، يبدأ الخصام ويتبعه الفراق . وربما يكون حاصل هذا الحب طفلاً جديداً يغتذي وينمو ليكبر ويعيد تمثيل المسرحية الأزلية ، موجة صغيرة على سطح أوقيانوس الوجود »[٢].

لقد تغافل دارسو جبران ، قصداً أو عن غير قصد ، عن هذه التناقضات ، النابعة من الصراع بين رؤيته الحديثة للمجتمع والحياة ، وبين المخزونات المترسبة في لاوعيه عن البيئة التي عاش وترعرع في أجوائها.

فهذا عدنان سكيك يقول: «أدرك جبران أن المرأة والرجل ولدا معاً،

---

(١) بربارة يونغ ، **هذا الرجل من لبنان** ، مصدر سابق ، ص ١٦٨ .
(٢) الحويك ، **ذكرياتي مع جبران** ، مصدر سابق ، ص ٦٩ .

وسيبقيان هكذا إلى الأبد، ولكنه لا يرضى أن يفنى أحدهما بالآخر، ولا أن تتلاشى شخصية الواحد منهما في الآخر . فإذا تزوج الرجل امرأة ، فلا بأس أن يتحابا ، على أن تبقى الشخصية المستقلة لكل منهما ، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر »[1] . ان عدنان سكيك لم يعط جديداً ، حيث أن جبران قال ذات الكلام ، ونقله بصورته الحرفية تقريباً . « لا علاقة بشرية تخول انساناً حق امتلاك انسان ، وكل نفس تختلف عن الأخرى على الإطلاق . بل في الصداقة والحب يرفع الفريقان أيديهما معاً وجنباً إلى جنب لينالا ما لا يستطيع كل منهما نواله بمفرده»[2]. والقول القديم « وهبتك ذاتي » و « اتخذتك في ذاتي » شيء غير مقبول وليس منطقياً أن يتخذ المرء لذاته ذاتاً أخرى.

وفي كتاب **النبي** عالج جبران مشكلة الزواج ، وقد رأى « المصطفى » أن أفضل الزواج ذاك القائم على التعاطف الروحي والحب : « أحبوا بعضكم بعضاً ، ولكن لا تقيدوا المحبة بالقيود ، بل لتكن المحبة بحراً متموجاً بين شواطىء نفوسكم .

ليملأ كل واحد منكم كأس رفيقه ، ولكن لا تشربوا من كأس واحدة.

قفوا معاً ، ولكن لا يقرب أحدكم من الآخر كثيراً ، لأن عمودي الهيكل يقفان منفصلين »[3].

اختلفت الآراء حول مفهوم الزواج عند جبران ، حسب ما جاء على لسان نبي أورفليس.

فمصطفى علم الدين يقول : « وكأني بجبران يجاهد من أجل

---

(١) عدنان سكيك ، **النزعة الانسانية عند جبران** ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٠ ، ص١٧٦ .

(٢) هاسكل ، **نبي الحبيب** ، مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ١٢٨ .

(٣) جبران ، **المؤلفات الكاملة** ، ص ٩٠ .

تعرية الزواج من ردائه الجنسي ، ليرفعه إلى جو روحاني سمـاوي ، حتى ليخيَّل إلينا ، ونحن نسمع تعاليم نبيّه في هذا المجال ، إننا أمام ركن كبير من ارهاط الصوفيين المسلمين »[١] . أما انطوان غطاس كرم فكان له رأي مناقض لذلك اذ قال : « في كتاب **النبي** اتخذ جبران جسد المرأة ، فكمَّله بجسـد الرَّجـل ، ولوى الجسـدين المتكاملين بـالحب والعذاب وتراً مشدوداً ، وجعل القوس في يد الرامي الذي هو الحياة ، والأولاد سهاماً ترمى على غارب الزمن الآتي ، فكلما تم اتحاد الجسدين والتحمت الحياة بالحياة تولَّد سهمٌ »[٢] .

آراء جبران بقيت رهينة مـزاجيته المضطـربة ، والمتقلبـة بين النقيض ونقيضه . وهو دائم الأسفار في بحور من النظريات المختلفة ، لا يرسو ولا يستقر على شاطىء من شواطئها . وخلال رحلاتـه في هذه العوالم كان يردِّد داخل نفسه : « هل بينكم من لا يترك أباه وأمه ومسقط رأسه ، عندما تناديه الصبية التي أحبها قلبه ؟ ... أي فتى لا يتبع قلبه إلى أقاصي الأرض إذا كان له في أقاصي الأرض حبيبة ، يستطيب نكهة أنفاسها ويستلطف ملامس يديها ، ويستعذب رنة صوتها ؟ » .

الذي لم يتبع نداء قلبه الى أقاصي الأرض هو جبران ، جبران الذي أصمَّ أذنيه ، وتاه في صحراء مجدبة ، وألف نداء ونداء يهتف به ، من غابة البشر ومن ظلمة أعماقه .

---

(١) علم الدين ، **نبي جبران وزرادشت نيتشه** ، مصدر سابق ، ص ٦٤ .

(٢) انطوان غطاس كرم ، **ملامح الأدب العربي الحديث** ، بيروت ، دار النهار ، ١٩٨٠ ، ص ١٢٢ .

الفصل الخامس

جبران والجنس

يؤكد التحليل النفسي أنه « لا نستطيع أن نتخيل حياة نفسية إنسانية لا تَأْخُذُ فيها الرغبة الجنسية ـ بمعناها الواسع ، أي اللبيدو ـ نصيبها ، إلَّا إذا كانت هذه الرغبة قد انسحبت بعيداً عن الهدف الأصلي لها ، أو إذا كانت قد مُنعت من أن توضع موضع التنفيذ »[1] . وليس ما يدعو الرجل إلى الخجل والخوف والتوجس والشك والإكتئاب ، مثل الشعور بأن المرأة التي يضاجعها صورة عن أمه ، أو هي بمثابة أمه.

ففي مثل هذه الحالة يفضل المرء أن يحيا حياة العفَّة . « يفرغ الجهاز الجنسي المواد الجنسية ليلاً على فترات متفاوتة لا تخلو من نظام ، تفريغاً مصحوباً بشعور اللذة ، إبان حلم يهلوس فيه الفعل الجنسي »[2] . لأن مبدأ الواقع « هو ميل الجهاز النفسي إلى تقييد الإشباع المباشر للغرائز البدائية ، حتى يكون إشباعها آخر الأمر متفقاً مع الحدود التي تفرضها الظروف الخارجية ، بما فيها من أوضاع المجتمع والعرف والأخلاق »[3].

---

(١) فرويد ، **التحليل النفسي والفن** ، مصدر سابق ، ص ٥٠ .
(٢) مصطفى غالب ، **الجنس عند فرويد** ، بيروت ، مكتبة الهلال ، ١٩٧٨ ، ص ١١٦ .
(٣) فرويد ، **ما فوق مبدا اللذة** ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٢ ، ص ٣٠ .

إن كبت الغريزة الجنسية ، ينجم عنه ألم من النوع الإدراكي - إدراك الضغط المتأتي من هذه الغريزة الجائعة إلى الإشباع . فالعالم الموضوعي ، البيولوجي - الإجتماعي ، لا يمكن أن يهضم الحب الحقيقي ويحتقره في وقت واحد ، كما أنه يخلق عزلة خانقة للفرد المكبوت.

فالإتصال الروحي الحقيقي ، والقضاء على العزلة ، لا يحدثان إلا عندما تتوحَّد « الانا » مع الـ « أنت » في حالة من الحب والصداقة[1] فالحب هو القادر على تحقيق الإندماج الكامل مع الكائن الآخر ، وهذا الإندماج من شأنه أن يعلو بالفرد عن العزلة ، « وطلب المعرفة لا يمكن أن يحقق ذلك إلَّا إذا كان ملهماً للحب »[2] . والمرء الذي يعيش طفولة معقدة ومعذبة ، لا بد أن يتعرض لصنوف شتى من الشذوذ النفسي ، حيث تتملكه المخاوف تحت تأثير الحزن واليأس والحرمان الكامنة في نفسه ، والخوف من الاجتماع البشري ، وتفضيل العزلة ، وكبت الغرائز.

وقد يكون « إحساس الرجل بالخوف من المرأة مردَّه إلى فقدان الثقة بالرجولة ، ذلك أنه يخشى الهزيمة في ميدان الفحولة ويشك في قدرته على إرضائها ، ويقع فريسة العجز الجنسي أما المرأة التي تمثل الجنس الأقوى ، أو الأنثى الإلهة القادرة على خلق الحياة وتدميرها في الوقت نفسه »[3] . وهذا الإحساس بالخوف والدونية إنما ينجم في ظل أب سلطوي ، وهو ناتج عن ممارسات إحباطية منذ سن الطفولة . يتعرض فيها إلى تحقير أبيه وتحجيم لقدراته. «ولا ريب في أن الفنان

---

(١) فرويد ، **الجنس واثره في السلوك الانساني** ، بيروت ، منشورات حمد ، ١٩٧٨ ، ص ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

(٣) نوال السعداوي ، **المرأة والجنس** ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٢ ، ص ٨٢ .

ينطبق عليه هذا الرأي في حسن تعويضه عن « مكبوتاته الجنسية » وشعوره بالدونية . إذ أن الفن من شأنه أن يثبِّت ذات صاحبه ، ويدعِّم ثقته بقدراته ، فينجو من العصاب الذي يتهدده »[١].

مدرسة التحليل النفسي تفهم العشق بوصفه فعلاً جنسياً ، يُقمع لكي يتوظف فائض الطاقة الجنسية ، بعد تصعيدها ، في نتاجات إبداعية . وتشبث البعض بمقولة العفة والعذرية ، ما هي إلا نتاج عقدة أوديب في بعض جوانبها ، لأنها تولِّد الخوف من السقوط في الذنب ، وتشكل الدرع الواقي بين الإنسان المعقد والوقوع في الإثم.

يقول الدكتور صادق جلال العظم : « إذا كانت الرغبة الجنسية الشرط اللازم للحب ، كما نفهمه ، فهي بدون ريب ليست الشرط الكافي لبزوغه وازدهاره في قلب الإنسان »[٢] . بمعنى أن إشباع الرغبة بعد بزوغ عاطفة الحب بين الرجل والمرأة ، تثبته وتجعله كاملاً ، روحياً وجسدياً . إنما إذا سبقته فتكون في أكثر الأحيان مجرد إشباع حيواني مجرد من تساميه المعنوي ، والإنسجام الروحي . فالحب « يميِّز وينتقي ويفرِّق بخلاف الرغبة الجنسية المحض ، التي تعتبر الموضوعات الجنسية سواء بسواء ، طالما أنها تزيل توترها وتخفف من حدّة هياجها »[٣].

إن كبار الفنانين ، رغم تحويل نشاطهم الجنسي إلى جهة الفن ، يجدون لذة كبيرة ، ومتعة لامحدودة ، في إعطاء خيالاتهم متنفساً لتصوراتهم الشبقية ، إنما يبقى الغالب لديهم هو توجيه قواهم الجنسية الدافعة نحو نشاطاتهم المهنية أو العملية . « فالباعث الجنسي معين

---

(١) خريستو نجم ، **المرأة في حياة جبران** ، مصدر سابق ، ١٩٨٥ ، ص ١٣ ـ ١٤ .

(٢) صادق جلال العظم ، **الحب والحب العذري** ، بيروت ، منشورات نزار قباني ، ١٩٦٨ ، ص ١٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٣ .

على أداء هذه المساعدات لأنه يمنح القدرة على الإعلاء . أي أن له القدرة على تحويل أقرب أهدافه إلى أهداف أخرى ذات قيمة أسمى ، ليست ذات طبيعة جنسية »[١].

مؤرخو الحضارة متفقون على « أن الأعمال الحضارية كلها تتطلب مركبات قويَّة تستمد من هذا الإنصراف بالغريزة الجنسية عن الأهداف الجنسية وتوجيهها إلى أهداف جديدة »[٢] تتسم بالرقي والتسامي . ومن يراقب النشاط الفني ، يكتشف في عملية الخلق عند المبدع الموهوب ، مزيجاً متفاوتاً من الفاعلية والإنحراف والعصاب ، حسبما يكون « التسامي كاملاً أو ناقضاً » .

وجبران ، يعلن عدم ميله للجنس ويقول : « لا أميل إلى البهلوانيات الجنسية المعروفة عند بعض الناس بأسماء حسنة ونعوت أحسن ».

ونيتشه يذهب مذهب جبران في زهده الجنسي فيقول : « إن بعض الزهد ... بعض هذا التخلي الحازم الهادىء الذي يصدر عن ملء الخاطر ، يشكل جزءاً من الشروط الملائمة لروحانية رفيعة ، وهو أيضاً إحدى النتائج الطبيعية لهذه الروحانية »[٣] . أُطلق على هذا الزهد ، العشق أو الحب العذري ، الذي هو محاولة لمواجهة مفارقة الحب الكبرى ، حسب قول صادق جلال العظم ، والتغلب عليها باختيار نزعة الإشتداد في الحب ورعايتها وتحقيق رغباتها عن طريق رفض العلاقات العاطفية الدائمة المستقرّة بين العاشقين ، خوفاً من أن يؤدي « الرباط المقدس » إلى اضمحلال العشق وخفوته.

والعاشق العذري « لا يحب في الحقيقة شخص حبيبته ، بقدر ما

---

(١) فرويد ، **التحليل النفسي والفن** ، مصدر سابق ، ص ٢٢ .
(٢) مصطفى غالب ، **الجنس عند فرويد** ، مصدر سابق ، ص ٦٧ .
(٣) نيتشه ، **اصل الاخلاق وفصلها** ، مصدر سابق ، ص ١٠٩ .

يحب عشقه لها (كحالة جبران) . ولذلك نراه يفضل بعدها على قربها ، لأن البعد يؤجج نار العشق ويترك المجال للعاشق لأن يتلذذ ، بينه وبين نفسه ، بأعنف المشاعر وأعذب الأحاسيس، ولأن يستمتع بحالات الألم والتمزق والقلق والسقم والبلاء التي تطرأ عليه وتنزل به من جراء بعده وحرمانه »[١] (مثال جميل بُثينة ـ وقيس بن الملوح) .

فالعلاقات الحبية التي تنزع إلى البقاء طويلاً ، تفقد زخمها بمرور الأيام ، وتتحول إلى صلات من نوع آخر تتسم بالإستقرار والثبات والإلفة ، وتسمى هذه الحالة « امتداد الحب » . و« تعمل شريعة الإمتداد متضافرة مع الأخلاق السائدة ، والقيم الدينية الشائعة ، والمؤسسات الإجتماعية القائمة على كبت نزعة الإشتداد والإنفعال في طبيعة الحب ، وحرمانها من تحقيق رغباتها وتطويق تفاعلاتها ضمن أضيق نطاق لحصر الخطر الناتج منها ومن عواقبها »[٢].

جبران خليل جبران ، المصاب بعقدة أوديب ، امتنع عن مضاجعة ماري هاسكل ، للحفاظ على امتداد الحب والحؤول دون اشتداده ، متذرعاً بمراعاة تقاليد المجتمع الأميركي ، في حين داس بإرادته التقاليد الشرقية المتزمتة، وزنى معنوياً بسلمى كرامي ، بعد زواجها ، بلقائه بها في أماكن نائية عن أعين الناس . وهذه الوضعية ، تثبت أن العاشق العذري ، خوفاً من خفوت توقه العاطفي لحبيبته ، يتذرع بشتى الذرائع للإمتناع عن امتلاكها جسدياً.

وعوائق الإمتلاك نوعين ، عوائق موضوعية ـ اجتماعية ، وعوائق داخلية ـ ذاتية. فحين يواجه العاشق عائقاً خارجياً يستبسل في جهوده لتخطيه وازاحته من طريقه . فعندما صادف جبران عائقاً خارجياً يعترض علاقته بحلا ، طلب إليها الهروب معه ، رغم قناعته باستحالة

---

(١) صادق جلال العظم ، **الحب والحب العذري** ، مصدر سابق ، ص ١٠١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤١ .

هذه الرغبة . وفي حال إزالة الحواجز والعوائق الخارجية ، يبدأ العائق الداخلي بالعمل ، حيث يمتنع الحبيبان عن امتلاك بعضهما بعضاً متذرعين بألف سبب وسبب (مثال جبران وماري هاسكل).

والعاشق العذري رومانسي في نظرته لموضوع حبه ونرجسي ، « فهو عاجز عن التخلص من خيالاته وأفكاره وعواطفه الشخصية كموضوع لعشقه ، فينزع نحو المبالغة في تصوير قيمة موضوع حبه (الأنثى الحبيبة) ويجعل منه مثلاً أعلى لا وجود له ولا واقع خارج ذاته »[١].

كثير من الباحثين اسبغوا على جبران صفة البتولية والطهرانية والعذرية ، في محاولة منهم لتجريده من الجسمانية ، وإعلاء شأن روحانيته الرسولية . وآخرون أسبغوا عليه الصفة الترابية المحض . والجميع على خطأ ، لجهلهم بتكوين جبران النفسي ، والعقد المستحكمة به.

فميخائيل نعيمة يقول ان جبران لم يكن عذرياً ، وأنه مارس الجنس باكراً . « في سن الرابعة عشرة تعرف على امرأة ، وزارها في بيتها . فقالت له : اقترب مني قليلاً اقترب ... » ثم ودع ملاكه الحارس ، فودع معها حياة الصبا وعفته وطهارته »[٢] . تلك المرأة أغوته ، وظل على علاقته الحميمة معها مدَّة سنة ، « فأي دور لعبت تلك المرأة في حياته ؟ أكثر الظن أنها جسَّمت صورة الأم ، وجعلت الرغبة الآثمة اللاواعية تتحقق فيها »[٣] . وشبح جريمته وشعوره بالذنب بقي يطارده دونما هوادة.

غير أن هذا الشعور لم يمنع جبران من التفكير بالجنس . فمن

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٠٨ .

(٢) نعيمة ، **جبران : حياته و آثاره** ، مصدر سابق ، ص ٤٨ .

(٣) ناهدة طويل ، **شخصية جبران** ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٤٧ .

يطّلع على الرسائل المتبادلة بين هاسكل وبينه ويقرأ مذكراتها ، يشاهد حجم الحيِّز الذي احتله التفكير الجنسي والممارسات الجنسية السطحية في حياته . في ٢٠ نيسان ١٩١١ ، يقول جبران لماري : « إنك تجعلينني أشعر بالدفء ... وبالوضوح باطناً . ولست بحاجة إلا إلى الوضوح والهدوء والدفء في جميع أنحائي »[١].

إثر قيام الثورة الجنسية في أوروبا وأميركا ، في العقد الأول من القرن الحالي، أبدى جبران رأيه فيها وبنتائجها المستقبلية، فقال عام ١٩١٢: «إن لكل شعب وقطر ـ كما لكل فرد ـ مزاجه الخاص . وإن مزاج العالم إذ ذاك هو مزاج الجنس، فبلدان كثيرة تبالغ في أهميته كما يفعل أفراد كثيرون . غير أنه يرى أن قوة الجنس ستزداد بعد في المستقبل ، وسيأتي يوم تُدرّس فيه الثقافة الجنسية في المدارس . وستتسع آفاق الحرية الجنسية بحيث « سيجيء يوم تترك فيه العلاقة بين الرجال والنساء حرّة فعلاً ، ويكون بوسع الرجل فيه أن يقول للمرأة : هل لك أن تعرفيني جنسياً لمدة ثلاث ساعات ، ومن بعدها لا يتعرَّف واحدنا على الآخر من جديد ؟ »[٢] . وقد صدقت رؤية جبران وبات الجنس مباحاً في أكثرية الدول الغربية.

وقوّة اللذة والألم كانت تحرك جبران وماري على حد سواء . « ماري إنك تولِّدين فيّ الكثير من اللذة ، التي هي عذاب ، وتولّدين فيّ الكثير من العذاب أيضاً ، وهنا يكمن سر حبي لك »[٣] . وتقول ماري هاسكل إن جبران لم يمتنع عن ممارسة الجنس من باب « الحلال » و« الحرام » بل لأنه لا يريده في حال وضع أمامه . فكل ما عرفته عن تحفظه الجسدي بل عن تحفظه العام ، وعن نزاهته الكامنة وراء لطيف

---

(١) هاسكل ، **نبي الحبيب** ، مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٤٥ .
(٢) توفيق صايغ ، **أضواء جديدة على جبران** ، مصدر سابق ، ص ٢١ .
(٣) هاسكل ، **نبي الحبيب** ، مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٨٢ .

معشره ، وعن لامبالاتــه الجوهرية بالنسبة إلى أهمية مهنته ، وبــرغم عاطفته وجوعه البشريين ، وكيف أن الاتصال الجنسي لم يكن طاغياً على تفكيره في وزنه لعلاقات الرجل بالمرأة ـ وهي علاقة تنـدرج في سلسلة علاقات تتضارع تقريباً بالأهمية ـ لم تحملها قط على التسليم بــأنه كــان رجل « غــراميات » . لكنهــا لو علمت بعــلاقته الجســديـة وغيتريد باري لكانت استطاعت التسليم.

تقول ماري في مذكراتها ، نيسان ١٩١٢ ، بأنه قد أورد هو ذاته من جديد تشبيه المجامعة ذاك بقطف الزهرة ... فعبارته تلك شعرية محضة، ولا تعني المجامعة لا من قريبها ولا من بعيدها. وفي يومياتها أيضاً ، ٢٩ كانون الأول من العام نفسه ، تعلن ماري أنهــا نقلت إليه أصداء إشاعات تردَّدت سابقاً في مسامعها عن علاقاته النسائيــة في باريس ونيويورك، فانفعل للحظة من الوقت ثم قال: هل تحققت من مقدار ما أنجزت من عمل في السنوات العشر الماضية؟. لو جُمع في مجلدات كما أعتقد أنه سيجمع يوماً ما، لتألف من ذلك خمسة عشر كتاباً من حجم **الأجنحــة المتكسرة** . وليس مــا كتبت من المواد السيــالة ، بــل هو مقطوعات شعرية مكثفة . هذا إلى جانب الرسم . وكل من عرف ذلك يعرف أن غزارة إنتاجي تلك لم تــوفر لي الــوقت للمغامــرات ... وقال أيضاً . إن الطاقة الجنسية فيــه تحولت إلى نــتاجه الفني . فليست « الفضيلة » هي التي تحفظه « متعففاً » بل طبعــه . ولا قانــون عنده بخصوص الجنس سوى الشرف والحقيقة .

وإن الساعتين الأخيرتين من السادس من نيسان ١٩١٢، تقول هاسكل، « أضافتا نــوراً جديــداً إلى الأنوار التي أبصــر بها . ضمني خليل ، أشد ما ضمني إليه ، لم يجامعني . ومع ذلك ولَّد فيَّ الفرح الذي تصبو إليه كــل أنثى تحن إلى أن تكون مشتهــاة ومحبوبة وموضــوع ملاطفة »(١).

---

(١) هاسكل ، **نبي الحبيب** ، مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٤٥.

ماري هاسكل التي تشتاق للجنس ، ولإطفاء الشهوة المعتلجة في أعماق كيانها القوي الصلب ، انقادت لاإرادياً إلى مشيئة جبران ، الذي أعلمها بأنه لن يكون بينهما علاقات جنسية على الإطلاق . لكنه في لحظات من الشبق المكبوت، كانت تفوه برغبتها المخنوقة. ففي ١ أيلول ١٩١٣ ، تعلن له « إني وددت لو أني كنت امرأة متزوجة ، أو ممثلة ، تنطلق بحرية في عالم الجنس ، وتعتاد المجامعة ، وتتجنب عواقبها »[١] . كما اعترفت له بأن الرغبة في الزواج منه تعاودها ، بينما سعادة ذاتها الكبرى هي في عَدَم الزواج منه ، وأنها لا زالت فريسة كفاح مع نفسها إلى أن تتم السيطرة لذاتها الكبرى .

كان جبران بحدسه يدرك ما يختلج في أعماق ماري من رغبات وشهوات ، وقد تسلَّح بأسلحة ناجعة يُجابهها بها كلما شعر بأن رغبتها جمحت بها ، وتسعى لإقناعه بممارسة الجنس معها ومضاجعتها . ومن هذه الأسلحة تخويفها من عاقبة الحمل ، فيقول لها : « إن افتضاح امرأة تجامع رجلاً من غير زواج شرعي يجعلها منبوذة من المجتمع ، ويكون هكذا بدل مغامرتنا أبهظ مما تستحقه المجازفة . ولو أن المجامعة الجنسية غاية ، أو أهم ما بوسعنا البلوغ إليه ، لاختلف الأمر . لكن بيننا أموراً عديدة مشتركة ، وقد توثقت عرى الوحدة بيننا بدون مجامعة ، ولم تكن هذه تعتمد على المجامعة كما توضح لنا»[٢]. واقتنعت ماري بهذا التبرير الواهي.

فلو أنه حقاً يخاف من افتضاح أمر امرأة تضاجع رجلاً من غير زواج شرعي . فكيف ضاجع غيتريد ؟ كيف يتذرع بالزواج الشرعي وهو أول من نقض أسسه قولاً وعملاً ؟ كيف يخاف المجتمع الذي يشهد ثورة جنسية عارمة ، والمرأة فيه تتمتع بنفوذ وحرية ، مجتمعاً نشأ على

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) هاسكل ، **نبي الحبيب** ، مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ١٢

الحرية والاستقلال ، دونما تمييز بين الرجل والمرأة في مختلف شؤون الحياة لا سيما الخاصة منها ؟.

وعندما رقدت إلى جانبه في مرسمه ، في إحدى ليالي كانون الثاني ١٩١٤ ، ثار الحيوان الكامن في أعماقه ، فصرخ بها قائلاً : « أنتِ تثيريني جسدياً ، كما كان يحدث لي في الماضي ، والماضي السحيق . وعندما كنت أجلس قربك على الأريكة أصطلي بالنار ، كانت الرغبة فيك أكبر عذابي »[١] . « ليس في بدنك موضع غير شهواني ، أنتَ حيَّة ، وحيوية ، ومحببة ، وقوية البنية ، وجيدة الصحة . وكل المزايا تجعل محاولة وقايتك من الحمل صعبة . وأنا أيضاً شديد الحرارة جنسياً ، واعتقد أن طاقة كبيرة تتحول لدي إلى عمل »[٢].

في كل لقاء ، كان جسم ماري يتفتح بكليته للمجامعة . إلا أن جبران كان يطفىء الرغبة داخله ، ويخنق التفتح ، فيتراجع جوعه إلى الوراء ، إلى اللاشعور ، متحيناً فرصة أخرى للظهور مجدداً.

في ٢٦ نيسان ١٩١٤ ، ناما معاً . وعن تلك الليلة تقول ماري : « تداعبنا بحرية ، وقبلني مراراً كما قبلته ، بمطلق الرقة وتقارب القلبين ، كما لم يحدث لي أن داعبته وقبّلته ، فارتوينا وانتعشنا . وحيث صعب علينا إبقاء العذاب موصداً ، انفتح أمامنا ، وعلى مصراعيه ، باب الإتصال الحرام ، فحرماننا من الإتصال الجسدي لم يبدُ أنه هو الحرمان ، حتى ولا الحافز إليه . فقلت له : كنْ كما أنت ، أي استعمل حريتك معي ولا خطر عليك ، بل كل ما فيَّ يرحِّب بك لأنك لذتي ، حتى استسلم إليَّ بذاته كلها »[٣] .

هل حقاً مارس الجنس، وتخطى جبران عقدة أوديب؟، وما معنى

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه .

كلمة ماري « استسلم إليَّ بذاته كلها » ؟ مما يؤكد رأينا بحصوله قولها في ٢٠ حزيران : « فقد رأينا أن الإتصال الجنسي يجب أن يتوقف بيننا نهائياً ، ويجب أن نخمد انفعالاته فينا »[١] . فلو لم يكن هناك اتصال ، لما كان ثمة اتفاق على وقفه ، واخماد جذوته فيهما . وفي ذات اليوم ، يرفد جبران حصول الإتصال الجسدي بينه وبين ماري ، عندما يقول : « اشتهيك أشدّ مما تشتهيني ، ومنذ أن دخلتِ أحسست بوجودكِ في كل جنبات الغرفة . لكن أمور الجسد لها أيامها ، وهي عابرة ، ولا أريد أي شيء عابر بيننا ... فقد كان لنا بعض الخبرة الجسدية ، ولكن لسنا ندري ما مفادها ، ولا ما ستأخذ منا متى عبرت »[٢].

جبران الجاهل لحد ما في أمور الجنس ، لم يكن يعلم شيئاً عن الشذوذ الجنسي ، والممارسة الجنسية المثلية « السحاق » و« اللواط » . وعندما قالت له ماري أن السحاق كسرة خبز في وليمة حياة جنسية حرَّة ، أجابها : « مَن يدري إذا ما كنت أنا كسرة خبز بدلاً من وليمة ؟ »[٣] . بهذا يعترف جبران بضعفه الجنسي فسيولوجياً ، وينقض احتمال أي عمل جنسي بينهما . فالتماهي بالألم جعله ينطق ويجيب ماري بلسان أنثى ، وليس بلسان رجل .

لم تيأس ماري ، ولم يغزُ الوهن عزيمتها ، ولم تشبع كلمات جبران وملاطفاته الحسية جوع الجسد . فاستمرت تحاول علَّها تحرك فيه شهوة الذكورة . لنسمع ماري تصف ليلة قضتها معه في مرسمه : « بعد تناول العشاء استلقينا في النور الخافت ، وكان رأسي يستند إلى صدره ، يا لقبضاته! كان قلبه يدق بقوة ، وظل يجسني ويمسني ملاطفاً كتفي ، ثم ظهري في أسفل عنقي ومؤخر ذراعي الملقاة على صدره . فأدفأ الغرفة وتعرّيت ، وبعد أن سرح نظره فيَّ : قال : إنك أكثر امتلاء هنا من أسفل « حول الفخدين » منك حول كتفيك . إن بنيتك

(١ ـ ٣) المصدر نفسه .

قوية جداً وجسمك جميل في تناسقه ، بل أنت بالضبط أدق ما يجب أن تكوني . وقد أثارته رؤيتي عارية ، إذ قال : النسوة من نـوعك يثـرن الرجال ، ويخشى الرجال من النظر إليك ، فهم لا يمتلكون أنفسهم من الإثارة »[1].

و « سـألني عن السحـاق وقـال إنه واحـد من الأمور التي مـا استطاع فهمها أبداً . فأجبت أن السحاق ، في اعتقادي ، يرتكز على انتشـار الجنس في المرأة ، انتشـار الجنس في جميع حيـاتها ، من اللباس إلى الحمل ، وأن الذي يدفع المرأة إلى السحاق ربما يكون غالباً نضوجها الجنسي وقت عدم عثورها على الرجل الأهل للإنتقاء ، وإنما على المرأة المجانسة »[2] . وقصّت ماري عليه خبرتها السحاقية مع (ل) « إن سحاقي مع (ل) كان حدثاً جميلاً وتجـربة أفـادتني في الوقت ذاته . لكني لم استرح من ملاطفاتها الجنسية ، بينما استراحت هي ، ولم تترك فيَّ إلاَّ التهيجات »[3] . فالسحاق يـريح قليـلاً إنما لا يشبع الرغبة.

مـاري هاسكـل ، ضحّت بمتطلبـات الجسـد إرضـاءً للحبيب ، ومـراعاة لحـالته النفسيـة والمـاديـة وغلّبت المعنوي ـ الروحي على الجسدي ـ المادي ، والألم على الفرح ، والجوع على الإشباع . هكذا امتنعت جورج صاند عن معاشرة حبيبها الموسيقار فريدريك شوبان جنسياً ، وآثرت مراعاة صحته على حبها العميق له الذي فاق كل حب أحسّت به ، وجعلها تستعذب التضحية وتنسى نفسها متغاضيـة عن رغباتها .

كلما شعر جبران بنار الشهوة وعلوها إلى سطح الـوعي ، كان

---

(١) هاسكل ، **نبي الحبيب** ، مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٦٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٧ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٦٥ .

يرتسم شبح الأم أمامه ، خارجاً من ظلمة اللاشعور ، فتخبو النار وتغور إلى الأعماق . هذا إضافة إلى خوفه من عدم إشباع ماري وافتضاح أمر عجزه الجنسي . وكان عام ١٩١٤ أهم الأعوام بالنسبة إليهما ، حيث بدأت الإهتمامات بالعلاقة الجسدية بينهما تسير في خط تراجعي ... حتى غابت كلياً من سماء حياتيهما .

السؤال الذي يحتاج للإجابة هنا هو : هل جبران كان طبيعياً من الناحية الجنسية ، فسيولوجياً ؟ هل أزمته نفسانية في قصوره الجنسي ؟ أم كان طبيعياً من الناحيتين النفسية والجسدية ؟ .

من الناحية النفسية ، كان جبران مصاباً بعقدٍ مختلفة ، وقد حافظت عقدة أوديب على قوتها في أعماق ذاته ، وهذه حالت دون حصول اتصال جنسي مع من تمثلن في عقله الباطن دور الأم والأمومة . فجبران كان في وضعية السادومازوشية . وهذه الوضعية « تأخذ في لاوعي الإنسان دلالة الخصاء ، وتفجر قلق الخصاء . الخصاء في الأصل هو السمة المميزة لجنسية الطفل بالمقارنة بجنسية الأب الذي يمتلك الأم ، ويفرض قانون التحريم على العلاقة بينها وبين الطفل ، مما يؤدي بالطفل إلى تحويل جنسيته نحو الخارج ، نحو امرأة بديلة »[١] أو التسامي بها ، وتحويلها نحو الإبداع الفني.

وفسيولوجياً ، كان جبران مهزولاً ، ضعيف الطاقة للممارسة الجنسية . «فماري المرأة الناضجة ، لم تر فيه ما يصلح للجنس »[٢] . لكن هذا الهزال ، والمرض الجسدي ، الذي رافقه حتى القبر ، لم يحولا نهائياً دون ممارسة الجنس . ومما يؤكد ذلك تجربته مع ماري خوري ، وغيتريد باري ، والملاك الحارس في مطلع صباه.

---

(١) مصطفى حجازي ، **التخلّف الاجتماعي** ، مصدر سابق ، ص ٩٠ ـ ٩١ .

(٢) علي شلق ، المرأة في أدب جبران ، بيروت ، **المجلة التربوية** ، العدد ٢ ، ١٩٨١ ، ص ١٦ .

وفي هذا المجال ، يقول سعيد البابا ، مترجم كتاب بربارة يونغ : « إن جبران استطاع بالجهد المؤلم الشاق ، والسعي الملهم المشتاق أن يوفق بين جسمانيته وشهواتها، وروحانيته وأشواقها، فيفي كلاً منهما حقها الكامل ، فعاش حياته البشرية على أكمل وجه يمكن لبشري أن يحياه . فانتشى من خمرة الشهوة الجسدية المحرقة وارتوى من رحيق التأمل الروحي المحيي . ولكنه دفع ثمن ذلك التوفيق الرائع بين مطالب الجسد ومساعي الروح عُصارة نفسه ومرهف حسه ، فقضى وهو ما زال في منتصف الطريق »[1].

قال جبران في معرض دفاعه عن بروده وعجزه الجنسي، كانت قد اتهمته بهما إحدى السيدات : إن أكثر المخلوقات شعوراً بالدافع الجنسي في الأرض هم الخلاقون ... والدافع الجنسي عندهم هبة جميلة ذات جلال . وأردف بأنه قادر على مضاجعة عدد من النساء . فبمقدار ما يتم « توكيد هذه الذكورة في مظاهرها الخارجية ، من خلال كل أنواع المبالغة بالقوة الجنسية القضيبية ، والأهمية القصوى التي تعطى لهذه القوة ، بمقدار ما يكمن في اللاوعي من مشاعر نقص وعجز »[2] . ومهما يكن من فحولة الفنانين ، على حد تعبير ستيكل ، « فنحن نميل إلى أن طاقة جبران الجنسية كانت ضعيفة لأسباب عديدة ، ليس أقلها مرضه بالسل الذي استوطن جسده منذ مطلع صباه ورافقه حتى آخر حياته . فهو منذ إقامته في باريس كان يؤثر الذهاب باكراً إلى الفراش »[3] .

انعكست حياة جبران الجنسية بكل تناقضاتها ، على نتاجه

---

(١) بربارة يونغ ، **هذا الرجل من لبنان** ، مصدر سابق ، ص ١١ .

(٢) مصطفى حجازي ، **التخلف الاجتماعي** ، مصدر سابق ، ص ٩٢ .

(٣) يوسف الحويك ، **ذكرياتي مع جبران** ، مصدر سابق ، ص ٣٢ .

الأدبي ، فحيناً يقول : « ملذات الحب حلال للمحبين ، روحية كانت أم جسدية » . وحيناً آخر « إن الجنس مهما اتخذ من أشكال ، شيء خلاق .

وفي حوار مع يوسف الحويك يقول : إذا كان الحب متبادلاً ، والمحبون أحراراً ، فما الذي يمنع من أن يكونوا سعداء ؟..

يجيبه الحويك : كلا يا جبران ، لا يمكنني البتة الإرتياح إلى هذا النوع من الحب الجسدي والأناني المبتذل ؟ إلى أي شيء ينتهي الحب إذا عريناه من جمال روحه ؟.

فيقول له جبران : جمال روحه ؟! أنت تتكلم كراهبة محبة . يبدو لي أنه لا يزال في كيانك ترسبات فاعلة من الكهنوت.

هنا ، يدعو جبران إلى تمتع المحبين بجميع ملذات الحب الجسدية والروحية ، لكنه يعود في **المواكب** ليناقض آراءه السابقة حيث ينبذ تدنيس الحب بالجسديات فيقول :

والحب إن قادت الأجسام موكبه
إلى فراش من الأغراض ينتحرُ
والحب في الروح لا في الجسم نعرفه
كالخمر للوحي لا للسكر ينعصرُ

بعد هذا ، لم يترفع جبران عن رغبات الجسد عفةً وطهراً ، وإنما قسراً وجبراً ، نتيجة عقده النفسية وأمراضه الجسدية.

تأثير المرأة في أدب جبران وفنه

يذكر الغربيون المرأة التي أحبها الأديب لاظهار مدى تأثيرها على نتاجه الفكري أو الفني . ونحن تحدثنا عن نساء جبران لنصل ، آخر المطاف ، إلى تأثيرهن في أدبه وفنه . ففي جميع ما كتبه جبران عبَّر عن تعبُّده للأنوثة ، ومجَّد المرأة وكأنها إلهة في سماء أبناء آدم.

إن هناك قضايا اجتماعية قيّدت المرأة وحطّت من قيمتها الإنسانية . وداخل هذه القضايا « تاه جبران طويلاً في المتناقضات ، مفازة الخير والشر . وخيّل إليه وهو يلتمس طريقه للافلات من قبضة الشر ، ان في استطاعته القضاء عليه بتوجيه ضربة محكمة إلى يافوخه . فضرب وضرب وضرب ، ولكن الشر ما برح يجول ويصول في الأرض ، فلا الظلم باد ، ولا الدعارة مُحقت ، ولا الرياء ثلّ عرشه ولا أصبح الحب والحق ... والجمال أسياداً مطلقين في قلوب الناس وأفكارهم »[1].

حاول جبران ان يصلح المجتمع ، وعبره يصلح وضع المرأة ، ولكن إصلاحه بقي دون تأثير لمثاليته ، ولبعده عن فهم أن أي تغيير يجب أن يبدأ من القاعدة التحتية ، من البنى الاقتصادية ، وصعوداً حتى التغيير الاجتماعي والثقافي.

---

(١) ميخائيل نعيمة ، جبران في ذروته ، بيروت ، جريدة **النهار** ، ١٨/١٢/١٩٨١

إن « اصلاح جبران لوضع المرأة المتخلف هو اصلاح شعري وجداني ، تتغلَّب فيه طفرة العاطفة على الحكمة العقلية ، فلا مراعاة للظروف الموضوعية ولا لمقتضيات التطور . وقد يشيع منطق النزوة والهوس والشهوة اذا ما اتبعت النساء منطق جبران وقد يتهدَّد كيان الخلية العائلية . ولكن مع ذلك كله فهو رد الفعل المقابل تماماً لتحكم الوالد والزوج والتقاليد والشريعة بالمرأة الشرقية ، كل هذا التحكم الذي يصل إلى درجة التعسف الذي نرى نتائجها السيئة حولنا في كل مكان من مجتعاتنا الشرقية »[١].

لم تكن المرأة في نتاج جبران حسية ، « تلك المرأة التي لها عينان وجدائل ، وقدّ مشيق ، وفخذان ممكوران و (ثديان ناهدان) وابتسامة ساحرة ، وسرير مشوق . بل كانت المرأة عنده نداء نحو عالم مجهول ، فردوسي ، ملأت وجوده بمعنى اللّٰه ، والعالم الذي سافر إليه بروأه ، وسكنه . كانت حنيناً ، وحناناً ، وقلباً مترعاً بالمراحم ، لا قلباً ينبض بالتوق والتشهّي . فجبران لم يكترث بالواقع أبداً »[٢].

اختلفت المرأة في نتاجه عن المرأة في حياته ، ففي نتاجه موضوع تقديس ، وقد ألهمته أمه عنوان قصة **الأجنحة المتكسرة** ، وحلا الضاهر ، عنوان كتابه **دمعة وابتسامة**.

وحب المرأة يملأ كتاباته ، وخاصة الأولى منها . تقول روز غريب ان جبران في هذه الكتابات « لا يفرّق بين الحب الجنسي ، حب الرجل للمرأة ، والمحبة الانسانية الشاملة . فكلاهما مصدر قوة وحكمة وجلال ، وكل حب جميل إذا كان صادقاً . ليس في الحب دنس ، لأن الطبيعة البشرية خيرة والأهواء صالحة ، كذلك الحب لأنه منها ؛ الحب

---

(١) طنسي زكا ، **بين جبران ونعيمة** ، مصدر سابق ، ص ٤٣ .
(٢) علي شلق ، مصدر سابق ، ص ١٧ .

يطهر الانسان ويحول الشرير إلى صالح والضعيف إلى قوي »[١].

وأكثر النساء تأثيراً في جبران ، على الاطلاق ، هي ماري هاسكل . فها هو يعترف ويقول : « انك تجعليني أرى كلما حدثتني ، واقعية الحياة وأعز ما في الحياة . أنت دائماً تجعليني أضع يدي على أشد نقاط نفسي لمعاناً ونوراً »[٢] . وكانت ماري تصحِّح له كتاباته الانكليزية حتى بعد أن تزوجت « كما ترين يا ماري ، اني أنا أيضاً تلميذ مدرستك ، ولا أستطيع كتابة كلمة بالانكليزية إنْ لم أكتبها لك »[٣] . كما أوحت له بأفكار سكبها في مقالاته « ... أتلاحظين كيف إن هذه الفقرات تلخص كل ما كنا نتحدث به معاً أحياناً ـ منذ سنوات مضت ؟ ليس فيها قول لم يتولد من محادثاتنا ، والتحدث بها معك زادها وضوحاً »[٤]. ويضيف « مرَّ علينا ست سنوات ، أنت وأنا ونحن نفكر ونتحدث ونعمل معاً ، إن أفكاراً لا يحصى عددها قد تحولت إلى جزء من ذاتينا حتى ليتعذر علينا اليوم التحقق من كيفية تولّدها فينا »[٥].

والمرأة التي دعاها ألمطرا في كتاب **النبي** ، هي ماري هاسكل . كما أن الجنية الساحرة في قصيدته هي ماري خوري ، وسلمى كرامي هي حلا الضاهر .

ولم يكن جبران أول شخص تؤثر في حياته ونتاجه المرأة ، فهناك كثيرون غيره. خذوا ، على سبيل المثال ، الكاتب الفرنسي بلزاك ، فقد كان للمرأة الفضل الأكبر في عطائه الأدبي . ومن النساء اللاتي أثّرن

---

(١) روز غريب ، **جبران في آثاره الادبية** ، مصدر سابق ، ص ٥٩ .
(٢) هاسكل ، **نبي الحبيب** ، مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٣٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٤٤ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٦٤ .
(٥) المصدر نفسه ، ص ١٦٧ .

في بلزاك ، زلما تورنجان، زوجة آمر المدفعية ، والسيدة دوبرني « التي كانت تكبره باثنتين وعشرين سنة . إلا أن هذا لم يمنعها من أن تكون صديقة له لا مثيل لها ، فكان لها تأثيـر عميق على تكوينـه الأخلاقي والأدبي . كما برهنت له عن اخلاص كبير ، وحب لا حدود له حتى وافتها المنية عام ١٨٣٦ . لقد أحاطت صديقها بحنو كبير، ولولا نصائح هذه « المحبة » لاختلف نتاج بلزاك العصي الطبع »[١] .

***

مواضيع جبران الكتابية كانت تنحصر في اثنين : « جور التقاليد البشرية في ما حللته وحرَّمته من علائق بين المرأة والـرجل ، وجـور الحكام ورجال الدين »[٢] .

وهذه الكتابات تعبِّر عن تمرد جبران على « هذه التقاليد والشرائع القاسية التي تحد من حريّـة الفكر والقلب ، والتي تسمـح لحفنة من الآدميين أن تتحكم في أرزاق الناس وعواطفهم وأعناقهم باسم القانون والـدين »[٣] . وكانت المـرأة الشرقيـة رازحـة تحت نيـر العبـوديـة والاستلاب ، فحمل نبراس الدفاع عنها ، داعياً إلى حريتها المطلقة ، وإلى الحب الحر ، وصورة أمه مرتسمة في ثنايا ذاكرته.

ان مرتا البانية التي تضمنتها مجموعة **عرائس المـروج** تروي قصة فتاة بريئة يغتصبها فارس بعد أن أحبته ، سلمته الجسد بعد أن وهبته الروح . إلاّ أن هذا الفاسق المستبد ، تركها تمضغ مرارة العار الذي ينمو في أحشائها جنيناً . فاضطرتها الظروف وقسوة الحياة لبيع

---

(١) فيليب برتو ، **بلزاك** ، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٩ ، ص ٦ .
(٢) جبران ، **المؤلفات الكاملة** ، مصدر سابق، ص ١٣ .
(٣) صلاح لبكي ، **المجموعة الكاملة النثرية**، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات، ١٩٨٢، ص ١٨٣.

جسدها كي تؤمن لقمة العيش لطفلها الصغير . وعندما زارها الكاتب قالت له بانكسار : « وهل جئت لتبتاع حياتي الأخيرة وتجعلها دنسة بشهواتك ؟ اذهب عني فالأزقة مشحونة بالنساء اللواتي يبعنك أجسادهن ونفوسهن بأبخس الأثمان . أما أنا فلم يبق لي ما أبيعه غير فضلات أنفاس متقطعة ، عما قريب يشتريها الموت براحة القبر »[١] .

وبعد أن ارتاحت إلى نواياه ، خفّت حشرجاتها ، ونظرت لوجه ابنها الضحية وهمست بصوت خفيض : « سوف ينظر الناس إلى ولدي بعين السخرية والاحتقار ، قائلين : هذا ثمرة الإثم ، هذا ابن مرتا الزانية ، هذا ابن العار ، هذا ابن الصدف . سوف يقولون عنه أكثر من ذلك ، لأنهم عميان لا يبصرون ، وجهلاء لا يدرون أن أمه قد طهَّرت طفولته بأوجاعها ودموعها ، وكفّرت عن حياته بتعاستها وشقائها »[٢].

المرأة هي الضحية دوماً في المجتمع الاستبدادي والطبقي ، ومن كرامتها تدفع ثمن قذارة الرجل وجريمته ، وقد أدركت مرتا بحدسها هذه الحقيقة ، اذ قالت : « أنا شهيدة الحيوان المختبىء في الإنسان ، أنا زهرة مسحوقة تحت الأقدام ... فعل كل ذلك مبتسماً ساتراً بشاعة ميوله وحيوانية مراميه بالكلام اللطيف والإشارات المستحبة»[٣]. هنا يتدخل جبران ليواسيها ، ناقماً على المجتمع الذي تسود فيه شريعة الغاب، شريعة الظلم والاستبداد فيقول: «... لست دنسة وإنْ وضعتك الحياة بين أيدي الدنسين . إن ادران الجسد لا تلامس النفس النقية ، والثلوج المتراكمة لا تميت البذور الحيّة . وما هذه الحياة سوى بيدر أحزان تُدرس عليه أغمار النفوس قبل أن تعطي غلّتها، ولكن ويل للسنابل المتروكة خارج البيدر، لأن نمل الأرض

---

(١) جبران ، **المؤلفات الكاملة** ، مصدر سابق ،ص ٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٦٦ .

يحملها ، وطيور السماء تلتقطها ، فلا تدخل إهراء رب الحقل . أنت مظلومة يا مرتا ، وظالمك هو ابن القصور ذو المال الكثير والنفس الصغيرة . أنت مظلومة ومحتقرة ، وخير للإنسان أن يكون مظلوماً من أن يكون ظالماً ، وأخلق به أن يكون شهيد ضعف الغريزة الترابية من أن يكون قوياً ساحقاً بمقابضه زهور الحياة ، مشوِّهاً بميوله محاسن العواطف ... تعزّي يا مرتا بكونك زهرة مسحوقة ولست قدماً ساحقة »[1].

لا يرى جبران في المرأة التي تقهرها وتسحقها تقادير الأيام والظروف ، وتجبرها على بيع جسدها لعبيد الشهوات والغرائز ، أي دنس أو خطيئة ، بل يعتبر أن الخطيئة في النفس وليست في الجسد . رغم أن هذا منافٍ للحقيقة ، فالروح أدرانها وفسادها يأتيان عن طريق الجسد .

الدكتور خليل أحمد خليل اعتبر « أن هذه المسألة الاجتماعية في المدينة هي امتداد لجريمة الوحش الاقطاعي في الريف . لكن الضحية تفتح الأفق على ضحايا اجتماعية أخرى ـ النساء يبعن أجسادهن ونفوسهن بأبخس الأثمان... ان مرتا الضحية الريفية لم تجد في المدينة مرجعاً اجتماعياً ينقذها أو يحميها ، بل وجدت أمامها واقع الفقر والانحطاط يدفعها في طريق **الزنا** المسدود »[2] . وثورة جبران عبر موقفه تجاه مرتا ، ثورة فارغة ، وفلسفته هي فلسفة الظلم ، ويدعو إلى الخنوع والاستسلام والرضوخ للعبودية ، بدلًا من التغيير ، والقضاء على أسباب الظلم وأسياده ، ويطلب من مرتا أن تتعزى « بكونها زهرة مسحوقة لا قدماً ساحقة » . وحلوله التي يطرحها حلول تلفيقية ،

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٦٥ ـ ٦٦ .

(٢) خليل أحمد خليل ، **المعرفة الاجتماعية في أدب جبران** ، بيروت ، دار ابن خلدون ، ١٩٨١ ، ص ٣٢ .

تتعارض مع الخيار « التمردي الذي تدرج عليه جبران في تصوير معالمه وبلورة ملامحه البارزة ».

ماذا تستفيد مرتا البانية ، مرتا الضحية « من عزاء لا يجعلها تتحرر من شرطها هذا ، وتنتصر على ظالمها وساحقها ؟ وكيف تستقيم الحياة الاجتماعية وتسترد عافيتها الروحية والأخلاقية ، إن لم يحوّل الضحايا وعيهم الاجتماعي إلى موقف وخيار يصنعان التغيير والتقدم لهم ولمجتمعهم ؟ جبران المتمرد يتحايل هنا على جبران الغيبي ، الملفّق للحلول . لأن المطلوب هنا ليس تعزية المظلوم والمسحوق والمقتول ، بل معاقبة الظالم والساحق والقاتل ، وتغيير مجرى التاريخ الاجتماعي بالذات»[١]. فبمعاقبة الظالم والقاتل والساحق وبإلغاء أسباب وجودهم ، تعتدل الحياة وتستقر الأمور ويتساوى أبناء البشر .

وعن مرتا البانية يقول جبران في رسالة إلى جميل المعلوف عام ١٩٠٨ : « هي دمعة محرقة أثارتها أوجاع الامرأة الساقطة التي تتبع الرجل قبل أن تسمع نداء قلبه ، وقبل أن تشعرَ نفسها باهتزازات الحب الإلهي التي تحدثها عن ملاقاة النصف الحقيقي »[٢].

أما وردة الهاني فهي بنظر جبران ضحية أخرى ، من ضحايا الشرائع والتقاليد ، والمجتمع البطريركي . ولكن طريق جلجلتها أقل وعورة وأشواكاً من طريق مرتا . فوردة الهاني ، تتزوج من الاقطاعي الثري رشيد بك النعمان ، الذي هو بعمر الخريف وهي في ربيع عمرها ، دون حب أو تناغم عاطفي . وقد تمّ الزواج بالاكراه وليس بالارادة والموافقة ، وعاشت داخل القصر لا تزيد قيمة عن محتوياته ، إلا بأنها وعاء يفرغ فيه فيض غرائزه ، وتطفيء نيران شهواته وحسب . وبعد حين يهفو قلبها لشاب أحبها وأحبته ، فتركت القصر وعبوديته ، ولحقت

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

(٢) رياض حنين ، **رسائل جبران التائهة** ، مصدر سابق ، ص ٤٣ .

بحبيبها لتسكن معه في كوخ حقير تخيم عليه أجنحة الحب ، وأجواء الحرية.

يقول جبران بلسان وردة : « ما أتعس المرأة التي تستيقظ في غفلة الشبيبة فتجد ذاتها في منزل رجل يغمرها بـأموالـه وعطايـاه ، ويسربلها بالتكريم والمؤانسة ، لكنه لا يقدر أن يلامس قلبهـا بشعلة الحب المحيية ، ولا يستطيع أن يشبع روحها من الخمرة السماوية التي يسكبها اللّه من عينيّ الرجل في قلب المرأة »[1] . الزواج الذي لا يبنى على الحب والتفاهم يعتبر زنى يرتدي ستار الشرعية ، وهذا ما جعل وردة تصرخ بملء فيها : « أنا كنت زانية وخائنة في منزل رشيد نعمان لأنه جعلني رفيقة مضجعه بحكم العادات والتقاليد قبل أن تصيّرني السماء قرينة له بشريعة الروح والعواطف . وكنت دنسة ودنيئـة أمام نفسي وأمام اللّه عندما كنت أشبع جوفي من خيراته ليشبع ميوله من جسدي. أما الآن فصرت طاهرة نقية لأن ناموس الحب قد حرَّرني »[2] . المدنية الحديثة ، وطغيان المادة والمظـاهر الفـارغة على انسـانية الانسـان وقيمه ، حدَّدت قيمة الانسان بمـاله ومقتنيـاته وممتلكـاته ، وأصبحت النساء يركضن وراء هـذه الماديـات ظناً منهن أنهـا طريق السعـادة والحب . وقد تنبأ جبران بمخاطر وانحطاط هذا المعتقد ، عندما أنطق وردة الهاني قائلة : « كثيراً ما يدفـع الغرور بـالنساء الى أن يتـركن رجالهن الفقراء ، ويتعلقن بالرجال الأغنياء ، لأن شغف المرأة ببهرجة الملابس ، ونعومة العيش يعمي بصيرتها ويقودها إلى العار ... وكثيراً ما يميت الجهل شـرف المرأة ، ويحيي شهـواتها فتتـرك بعلها ملـلاً وضجراً ، وتطلب ملذات جسدها بقرب رجل آخر أكثر منها انحطاطـاً وأقل شرفاً »[3].

---

(١) جبران ، **المؤلفات الكاملة** ، مصدر سابق ، ص ٩٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٩٨ .

المجتمع الذي غلف وعيه بكثافة الجهل والأنانية ، تغافل قصداً عن معاناة المرأة. فهؤلاء « البشر الذين يجيئون من الأبدية ويعودون إليها قبل أن يذوقوا طعم الحياة الحقيقية لا يمكنهم أن يدركوا كنه أوجاع المرأة عندما تقف نفسها بين رجل تحبه بإرادة السماء ، ورجل تلتصق به بشريعة الأرض. هي مأساة أليمة مكتوبة بدماء الأنثى ودموعها ، يقرأها الرجل ضاحكاً لأنه لا يفهمها ، وإن فهمها انقلب ضحكه فجوراً وقساوةً وأنزل على رأس المرأة من غضبه ناراً وكبريتاً وملأ أذنيها لعناً وتجديفاً »[1] . وتأتي قصَّة **مضجع العروس** في السياق نفسه ، مضموناً وأبعاداً ، رغم اختلاف نهايتها ، حيث العروس تقتل حبيبها ثم تقتل نفسها .

ثم **الأجنحة المتكسرة** التي تحكي غرام جبران وحلا الضاهر ، هذا الحب الذي حطَّمه المطران لتزويج سلمى إلى ابن أخيه . واستسلام والد سلمى لارادة المطران ، استسلام الابنة لارادة أبيها . والحكاية مفعمة بالنقمة على التقاليد واستبداد رجال الدين . كما يصف جبران في **الأجنحة المتكسرة** متع الحب الروحية التي أثارت نقد ميّ زيادة لها.

في **الأجنحة المتكسرة** « ظلّت مسألة المرأة الشرقية وصراعها ضد التقاليد مسألة مركزية ممثلة في (سلمى كرامي) التي تحاول أن تبقى أمينة لمبادئها وشرفها من خلال ايمانها بقدسية الحب »[2] . وحسب رأي الدكتور محمد شيا « فإن الجديد في (هذه الحكاية) هو ذلك البعد الفلسفي الذي يجرد مفاهيم العلاقة المقدسة في الحب ، وهو ما يحصل للمرة الأولى في كتابات جبران المتجهة نحو المزيد من التعقيد »[3].

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٩١ .
(٢) محمد شفيق شيّا ، **في الأدب الفلسفي** ، بيروت ، مؤسسة نوفل ، ١٩٨٠ ، ص ٢٠٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠٧ .

«إن الجامعة البشرية قد استسلمت سبعين قرناً إلى الشرائع الفاسدة ، فلم تعد قادرة على ادراك النواميس العلوية الأولية الخالدة »[1].

رمز جبران بالمرأة إلى الأمة « أليست المرأة الضعيفة هي رمز الأمة المظلومة ؟ أليست المرأة المتوجعة بين ميول نفسها وجسدها هي كالأمة المتعذبة بين حكامها وكهانها ؟ ان المرأة من الأمة بمنزلة الشعاع من السراج ، وهل يكون شعاع السراج ضئيلاً إذا لم يكن زيته شحيحاً ؟[2].

خلال هذه القصص كانت صرخات جبران « تعلو وتهبط ، وتمتد وتنكمش ، وتلتهب وتخبو ، على قدر ما يكون الوجع الذي تنطلق منه جسيماً أو خفيفاً . فهي حيناً ثورة جامحة ، وحيناً تبكيت لطيف ؛ آناً شكوى مريرة ، وأونة بث يكاد يكون همساً . فما أكثر ما ثار جبران في بدء حياته الأدبية على أوضاع الناس من دينية واجتماعية وسياسية واقتصادية »[3].

جبران ، عانى في صغره قسوة الحياة ، وشظف العيش والاضطهاد ، ورأى ما عانته أمه أيضاً من مظالم التقاليد والعادات ، وقد نفَّس عن أحقاده ونقمته بالكتابة . ومن راقب حياة جبران وتصرفاته مع النساء ، يكتشف أنه كان تلميذاً وفيّاً لنيتشه الذي قال : « من السليم ولا شك فيه أن يُفصل الفنان عن نتاجه إلى درجة تجعل من المتعذر حمله ، بمقدار حمل نتاجه على محمل الجد . فهو لا يعدو كونه في نهاية المطاف سوى الشرط الأول لنتاجه ، رُحم هذا النتاج ، ماويّته »[4] .

---

(١) جبران ، **المؤلفات الكاملة** ، ص ٢٤٤

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢١١ ـ ٢١٢ .

(٣) نعيمة ، جبران في ذروته ، بيروت ، جريدة **النهار** ، ١٨/١٢/١٩٨١

(٤) نيتشه ، **أصل الأخلاق وفصلها** ، مصدر سابق ، ص ٩٨ .

تطور مفهوم المرأة في فكر جبران

كنا قد ذكرنا سابقاً أن نتاج جبران تمحور منذ بدايته حول المرأة واستلابها إرادتها ، وحول الإستبداد السياسي والأكليركي.

ولكن مفهوم المرأة في الفكر الجبراني سار في خط تصاعدي من أسفل إلى أعلى ، من الفجاجة والأنانية والذاتية ، إلى النضوج والوعي والشمولية ؛ من المرأة الراسفة في قيود مختلفة ، منها الذاتية ومنها الموضوعية ، إلى المرأة المتحرِّرة ، المرأة الإنسانة ندّ الرجل ، ونصفه الآخر.

وهذا التطور مرَّ في مراحل ثلاث :

- المرحلة الرومانسية ، حيث تغلبت العاطفة الجياشة ، على العقل وموضوعيته.
- المرحلة النيتشوية ، المتميِّزة بالثورة والعنف ، المفعمين بالحقد والغضب والتجهّم.
- المرحلة الحكمية ، مرحلة الإتزان العقلي والنضوج الفكري المتسمين بسمات الرومانسية التي وسمت النتاج الجبراني برمته.

فالمرحلة الأولى ابتدأت بكتاب **عرائس المروج** (١٩٠٧) ، وانتهت برواية **الأجنحة المتكسرة** (١٩١٢) .

في **عرائس المروج**، تطالعنا مرتا البانية ، بكل سذاجتها الفطرية ، وجهلها التمييز بين الحب الروحي وبين الرغبة الجسدية .

وهذه السذاجة وهذا الجهل يدفعانها إلى تسليم جسدها لأول عابر سبيل ، فتفقد بكارتها في مجتمع يقدس البكارة ويعتبرها رمزاً للطهر والعفاف ، ويرذل المرأة المستهترة والعابثة بهذه المقدسات . ونتيجة لذلك ، تضطر إلى سلوك مسلك البغاء ، وفي آخر لحظات حياتها ، تستيقظ مداركها وتعي فداحة الجريمة التي ارتكبت ، فتشعر بالندم وتحقد على الرجال . وتقول لجبران وهي على فراش الإحتضار :

« جئت محسناً مشفقاً ، فلتجزك السماء عني إن كان الإحسان على الخطاة برّاً ، والشفقة على المرذولين صلاحاً . ولكني أطلب إليك أن تعود من حيث أتيت لأن وقوفك في هذا المكان يكسبك عاراً ومذمَّة ، وحنانك عليَّ يثمر لك عيباً ومهانة . إرجع قبل أن يراك أحد في هذه الغرفة الدنسة المملوءة بأقذار الخنازير . إن الشفقة التي تملأ نفسك لا تعيد إليَّ طهارتي ، ولا تمحو عيوبي ، ولا تزيل يد الموت القوية عن قلبي »(١).

وعت مرتا البانية خطيئتها ، بعد أن خسرت شرفها وكرامتها وحياتها . ولكن هذا الوعي كان مشحوناً بالحقد على من قدمت لهم جسدها لقمة سائغة على فراش الملذات . ووصفتهم بالخنازير ، في محاولة للتعبير عن عمق الدرك الذي هبطت إليه ، فأحرقها بنيرانه . وككل الخطاة ارتدعت مرتا ، ووقفت أمام عتبة الموت تطلب من القدرة الربانية قبول طاعتها والغفران لها ، فتناجي ربها :

« أيها العدل الخفي ، الكامن وراء الصور المخيفة ، أنت أنت السامع عويل نفسي المودعة ، ونداء قلبي المتهامل ، منك وحدك أطلب وإليك أتضرَّع ، فارحمني وارع بيمناك ولدي وتسلَّم بيسراك روحي »(٢).

---

(١) جبران ، **المؤلفات الكاملة** ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٧ .

وامتداداً لوضعية مرتا البانية ، تأتي وردة الهاني في مجموعة **الأرواح المتمردة** (١٩٠٨) . وردة الهاني إنسانة متقلبة العواطف تسعى وراء أهوائها ، ضاربة بكل القيم عرض الحائط ، تحت شعار الثورة والتمرد على القيم والتقاليد البالية . وهذا لا يعني أن التقاليد والقيم الاجتماعية التي كانت سائدة في لبنان آنذاك عادلة ومقدّسة ، إنما هذا لا يسمح لنا بممارسة الأسوأ والأفدح، وتحميل المجتمع أخطاء ما ترتكبه إرادتنا الواعية أم الجاهلة.

وردة الهاني ، كمثيلاتها ، ارتضت بعلاً لها ، دون أن تعلن رفضها ، وعدم الرفض قبول .وتبريراً لتقلبها العاطفي المزاجي ، تتهم الزوج بالأنانية ، والمجتمع بالظلم والاستبداد . ولو كل زيجة تمّت بدون تعاطف روحي مسبق ، تنتهي كما انتهت وردة الهاني ، لفسد المجتمع وانهار.

ففي **الأرواح المتمردة** ، شاء جبران أم أبى ، رشيد بك هو الضحية ، ووردة الهاني هي القاتل . رشيد بك كان مثال الزوج الصالح لوردة ، فها هو يقول :

« هي المرأة ـ المرأة التي أنقذتها من عبودية الفقر ، وفتحت أمامها خزائني وجعلتها محسودة بين النساء على الملابس الجميلة والحلى الثمينة والمركبات الفخمة والخيول المطهّمة ـ المرأة التي أحبها قلبي وسكب على قدميها عواطفه ، ومالت إليها نفسي فغمرتها بالمواهب والعطايا . المرأة التي كنت لها صديقاً ودوداً ورفيقاً مخلصاً ، وزوجاً أميناً قد خانتني وغادرتني ... المرأة التي أحببتها ـ الطائر الجميل الذي أطعمته حبات قلبي وسقيته نور حدقتي ، وجعلت ضلوعي له قفصاً ومهجتي عشاً ، قد فرَّ من بين يديّ وطار إلى قفص آخر محبوك من قضبان العوسج ليأكل فيه الحسك والديدان ، ويشرب من جوانبه السم والعلقم ـ الملاك الطاهر الذي أسكنته فردوس محبتي وانعطافي قد

انقلب شيطاناً مخيفاً وهبط إلى الظلمة ليتعذب بآثامه ويعذبني بجريمته »[١].

رشيد بك لم يشتر وردة بالمال، بل وهبها قلبه و « سكب على قدميها عواطفه »، و « وأطعمها حبات قلبه »، أليست هذه تضحيات الحبيب لحبيبته ؟ . حتى أن وردة، لا تقوى على نكران حب رشيد وتفانيه في سعادتها، روحياً ومادياً، وتعترف بأنه :

« شغف بي، ومال إليَّ ميلاً شريفاً كما يقول الناس . ثم جعلني زوجة له وسيدة في منزله الفخم بين خدامه الكثيرين ... ويرفع رأسه تيهاً وافتخاراً إذا سمع نساء أصحابه يتكلمن عني بالإطراء والمودَّة ... »[٢].

أليست أمنية المرأة أن تجد الزوج الذي يحبها ويحترمها ؟ . فما ذنب هذا الزوج إذا الأهواء تلاعبت في عواطف زوجته، ودفعتها للنكران والخروج على مسالك الحق ؟ وردة الهاني هي الجانية، ليس لأن المجتمع قاس، إنما لأنها كانت جاهلة، لا تقدر على التمييز بين السعادة الحقيقية والسعادة المزيفة .. وهي مشت بإرادتها إلى قصر رشيد بك، طواعية، دون إرغام أو إكراه، فهي تقول :

« نعم، جرى كل ذلك عندما كنت أحسب منتهى السعادة في ثوب جميل يزيِّن قامتي، ومركبة فخمة تجرّني، ورياش ثمينة تحيط بي ... ولكن عندما استيقظت وفتح النور أجفاني، شعرت بألسنة النار المقدسة تلسع أضلعي وتحرقها، بالمجاعة الروحية تقبض على نفسي فتوجعها ... عرفت أن سعادة المرأة ليست بمجد الرجل وسؤدده، ولا بكرمه وبحلمه، بل بالحب الذي يضم روحها إلى روحه، ويسكب عواطفها في كبده ويجعلها ويجعله عضواً واحداً من جسم الحياة،

---

(١) المصدر نفسه، ص ٨٧ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٩ .

وكلمة واحدة على شفتي الله »[1].

تؤكد هذه الفقرة أن رشيد بك أحب وردة لذاتها ، لا لمالها ولا لمجدها ، بينما هي تزوجته لماله وسؤدده ، وأعمت قلبها المظاهر ، وأقفلته أمام حب زوجها . فهي التي اشترت بجسدها مال وغنى رشيد بك ، فيما وهبها هو روحه وقلبه وثروته ، ملبياً نداء الحب الصادق.

جبران الذي حمل لواء الذود والدفاع عن المرأة ، أوقعها بيده في نزوته الشبابية ، في بحران الجريمة ، ووضعها في قفص الإتهام . وردة الهاني ، التي تستأثر بالعواطف الشابة وتشدها لنصرتها ، للوهلة الأولى ، تنفر منها لتنصر الزوج الضحية . ووردة هي واحدة من اللواتي يعبثن بعواطف الرجل ، ويجعلنه مطية، وجسراً للوصول إلى رغباتهن وأهوائهن ، وهذا ما تؤكده وردة بنفسها :

« انظر إلى هذا المنزل الكبير ... فهو منزل إمرأة جميلة الوجه ، خبيثة النفس ، قد مات زوجها الأول ، فاستأثرت بأمواله وأملاكه ، ثم اختارت من بين الرجال رجلاً ضعيف الجسم والإرادة واتخذته بعلاً لتحتمي باسمه من ألسنة الناس وتدافع بوجوده عن منكراتها . وهي الآن بين مريديها كالنحلة تمتص من الزهور ما كان حلواً ولذيذاً »[2].

والفتاة ، في قصة **مضجع العروس** الوجه الآخر لوردة الهاني . فهي تنتقم مرتين في آن واحد ، تنتقم من الذي اختارته زوجاً لها ، ومن حبيبها . فقد اختارت زوجاً لها بإرادتها ، انتقاماً من الحبيب ، بعد وشاية كاذبة ، وقبل التحقق من مدى مصداقية الخبر . وليلة عرسها ، تنفرد وحبيبها ، وتبوح له بغباءتها وتسرّعها في اتخاذ مواقف تنم عن وعي ضعيف فتقول :

« قد أخبرتني نجيبة بأنك سلوتني وكرهتني وانشغفت بحبها . قد

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٩٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩٣ .

ظلمتني تلك الخبيثة واحتالت على عواطفي لكي أرضى بنسيبها عريساً ، فرضيته يا سليم ولا عريس سواك ... تركت العريس الذي اختاره لي الكذب بعلاً . وتركت الوالد الذي أقامه القدر ولياً ... وأتيت لأتبعك إلى أرض بعيدة ، إلى أقاصي العالم ، إلى مكامن الجن ، إلى قبضة الموت »[١].

أما سليم ، فكان أكثر تعقلاً ، وأكثر واقعية ، وشعر بصراع عنيف في أعماقه ، صراع الحب الذي طُعن بخنجر الغدر ، والشرف الذي يثني النفس عن رغباتها ومنازعها . وكلّ من الحب والشرف مهدد من قبل الحبيبة . وفي النهاية انتصر الشرف على صراخ الحب ، فانتفض متجهماً وقال لها :

« ابتعدي عني أيتها المرأة ، فقد سلوتك ، نعم سلوتك وكرهتك وتعلّقت بهوى غيرك ...

هل سمعت ماذا أقول ؟

قد سلوتك حتى نسيت وجودك ، وكرهتك حتى أبت نفسي مرآك.

فابتعدي عني ودعيني أذهب في سبيلي ، وعودي إلى عريسك وكوني له زوجة أمينة »[٢].

فأخذت خنجراً وطعنت حبيبها سليم . وعندما تجمهر حولها الناس ، أسقطت فعلتها وجهلها على الآخرين ، وحمّلتهم مسؤولية هذه المأساة ، وهم منها براء ، وقالت :

هو حبيبي قد قتلته لأنه حبيبي ... وقد بحثنا فلم نجد مضجعاً يليق بعناقنا في هذا العالم الذي جعلتموه ضيّقاً بتقاليدكم ، ومظلماً بجهالتكم ، وفاسداً بلهاثكم ففضلنا الذهاب إلى ما وراء الغيوم.

وأنت أيها الرجل الغبي الذي استخدم الحيلة والمال والخباثة

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١١٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١٥ .

ليصيّرني له زوجة . أنت رمز هذه الأمة التعسة التي تبحث عن النور في الظلمة وتترقب خروج الماء من الصخر، وظهور الورود من القطرب»[1].

ما ذنب الناس في ذلك ، وما علاقة تقاليدهم وجهالتهم بكل ما يجري ؟ . وما ذنب هذا الزوج الذي استخدمته وسيلةً للانتقام من حبيبها ؟.

وكيف تسوِّغ لها نفسها قتل الذي سلاها وكرهها ، ويبرِّر جبران فعلتها ؟ بينما وُضع رشيد نعمان موضع الإتهام لمجرد أنه شعر بالمرارة والحزن لفقدان وردة الهاني ؟ . فكيف لو انتقم من وردة كما انتقمت هذه من سليم ؟.

ماذا سيكون موقف جبران من الأمر ؟ جبران ، اتخذ جانب وردة ، عندما أحب قلبُها الشاب الفقير ، ولحقت به . فلماذا وقف موقف العداء من سليم ، ودفع حبيبته لقتله ؟ أين المنطق في ذلك ؟ وأين العدالة في كل ما يجري ؟.

وفي آخر المرحلة الرومانسية ، جاءت **الأجنحة المتكسرة** التي شكلّت همزة وصل بين هذه المرحلة والمرحلة الثانية ، وتميزت بنضوج فكري أكثر من سابقاتها . فسلمى كرامي ، أكثر وعياً ، وأكثر واقعية ، وأكثر فهماً للواقع وتناقضاته ، رغم بعض الشطحات الخيالية التي يدفعها إليها المؤلف . وسلمى كرامي ، هي الصورة الحقيقية للمرأة المستلبة ، والتي تعاني جور التقاليد الاجتماعية والدينية . إلا أنها ضعيفة الإرادة ، تعي أنها مقهورة ، ومظلومة ، ولكنها لا تثور على القهر والظلم ، إنما تستسلم لهما ، استسلام العبد لسيده . ها هي تقول :

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١١٧ .

« أنا مثل عمياء تتلمس بيدها الجدران مخافة السقوط . أنا جارية ، أنزلني والدي إلى ساحة النخاسين ، فابتاعني رجل من بين الرجال . أنا لا أحب هذا الرجل لأنني أجهله ، أنت تعلم أن المحبة والجهالة لا تلتقيان . ولكني سوف أتعلم محبته ، سوف أطيعه ، وأجعله سعيداً ، سوف أهبه كل ما تقدر المرأة الضعيفة أن تهب الرجل القوي »[١] .

وسلمى كرامي على نقيض وردة الهاني ، والفتاة في **مضجع العروس** . فهي تؤمن بكل وضوح أن « قلب المرأة لا يتغيَّر مع الزمن ولا يتحوَّل مع الفصول . قلب المرأة ينازع طويلاً ولكنه لا يموت »[٢].

في هذه القصص ، يصوّر لنا جبران ، الرومانسي ، المرأة على أن لا همّ لها في الحياة إلا الحب والأهواء ومنازع القلب والجسد ، وتابعة للرجل بسبب جهلها حيناً ، وبسبب تعنت واستبداد المجتمع حيناً آخر . تدأب دوماً على إسقاط أخطائها وخطيئتها على المجتمع والتقاليد عن حقّ وبدون حقّ.

أما في المرحلة النيتشوية ، فيخطو فكر جبران خطوة كبيرة إلى الأمام ، فيما يتعلَّق بمفهومه للمرأة . في هذه المرحلة ، التي تشكل نقطة الفصل بين المرحلة الرومانسية والمرحلة الحكمية، تجابهنا المرأة فيها بوعيها للحياة ، وبتفكير عميق وبإرادة قوية ، بالرغم من أنها تبقى الجنس الآخر والتابع للرجل.

فإبنة الأمير في الحكاية الواردة في كتاب **دمعة وابتسامة** (١٩١٤)تلتقي ابن زرّاع في الحقل ، فأحبها . ولكنه كبت حبه للتفاوت الطبقي بينه وبينها . إلا أن الحب دعاها إلى جنته لتتعبد في هيكله . وإرادتها الحرَّة دفعتها لتختار من أحبَّه قلبها ، واختاره شريكاً لحياتها .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٠١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ .

فلحقت به إلى الحقل ، قبّلت شفتيه وباحت له بقولها : « قد رأيتك يا حبيبي في أحلامي ، ونظرت وجهك في وحدتي وانقطاعي ، فأنت رفيق نفسي الذي فقدته ، ونصفي الجميل الذي انفصلت عنه عندما حكم عليَّ بالمجيء إلى هذا العالم »[١].

وفي مخبآت الصدور ، ورغم الحب الذي يداعب قلب الفتاة المتزوِّجة ، فإنها رفضت أن تخون من اختارته شريكاً لها . ولم تفعل كما فعلت وردة الهاني ، فالتجأت إلى الشكوى من خلال الكتابة إلى صديقتها ، حيث قالت لها : « أنا اعتبر بعلي لأنه كريم ، شريف القلب ، يجهد النفس في سبيل سعادتي ، ويبذل المال لرضاي . ولكني وجدت تأثير هذه الأشياء كلها لا يساوي دقيقة محبة حقيقية مقدسة . هذا القلب الخفوق ... لا يقرأه إلا الرفيق الحقيقي ، نصف المرأة المخلوق لها منذ الأزل وحتى الأبد .. »[٢].

في هذه المرحلة ، يقترب جبران من منهج ميخائيل نعيمة الذي آمن بأن وحدة الوجود ووحدة الإنسان كانت أزلية ، ثم انقسمت إلى قسمين : رجل وامرأة ، مادة وروح ، وهذه الإزدواجية في طريقها إلى الوحدة مجدداً .

وفي الختام ، تأتي المرحلة الحكمية ، التي تمثلت بـ **النبي** ، **يسوع ابن الإنسان** ، **آلهة الأرض** و **التائه**.

ومما لا شك فيه أن فكر جبران تخلَّص من إسار المجتمع الشرقي واستبداده ، وامتزج بالمجتمع الأميركي ، الديمقراطي ، المساواتي . وهذا الإمتزاج ترك بصماته على نتاجه الأدبي بشكل واضح وجلي . وتحولت المرأة ، الجاهلة ، والضعيفة ، والأنانية ، والغارقة في أحلامها الذاتية ، واللاهثة وراء أهوائها ورغباتها ، إلى امرأة واعية ، تقف جنباً

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٤٩ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٠٢ .

إلى جنب مع الرجل في مسرح الحياة ، تناضل وتعمل في سبيل التسامي بالإنسان والمجتمع عن المنازع الترابية .

في كتاب **النبي** ، معظم حواريي المصطفى من النساء .والمطرا الحوارية الأساسية له ، امرأة ـ إنسانة ، لا يزيدها الرجل فكراً ووعياً وعقلاً.

وجبران ، في هذه المرحلة من النضوج الفكري ، يجعل المرأة صنو الرجل . ففي فصل الزواج يخاطب الإثنين معاً : « ليعطِ كل منكم قلبه لرفيقه ، ولكن حذار أن يكون هذا العطاء لأجل الحفظ ، لأن الحياة وحدها تستطيع أن تحتفظ بقلوبكم »[١].

وفي **يسوع ابن الإنسان** ،يخاطب يسوع المجدلية : « إن بقية الرجال ينظرون فيك إلى جمال يذوي قبل انتهاء سنيهم . أما الجمال الذي أراه فيك فإنه لن يزول .. أنا وحدي أحب ما لا يُرى فيك . وهنا تهتف مريم قائلة : في ذلك اليوم ذبح غروب عينيه الوحش الذي كان فيَّ ، فصرت امرأة . صرت مريام . صرت مريم المجدلية »[٢].

صرخة المجدلية هي صرخة الإنسان المتجرد من الشهوات والأهواء الأنانية ، الكامن في أعماق المرأة؛ هي صرخة مرتا البانية ، ووردة الهاني ، وغيرهما من اللواتي غرقن في وحول الجسد ورغباته . بعد أن قتلهن الوحش الرابض في أعماقهُن، وخلعن جلدهن، واستردن إنسانيتهُن ، ومكانتهن في الوجود . « فالإله الأول من آلهة الأرض يقول : فأي شيء تراه هناك إلا رجلاً وامرأة في الغابة التي نمت لتصطادهما في فخاخها ، وتعلمهما إنكار الذات »[٣].

وخير شاهد على تطور المرأة في فكر جبران الفقرة التالية التي

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٩٠ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢١٤
(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٨٧

وردت في كتاب **التائه** (١٩٣٢) :

قال لها : « أنا أحبك ، أنت فكرة جميلة ، بل أنت شيء تسامى عن أن تناله يد ، أنتِ أغنية في حلمي.

فأجابته : أرجوك أيها السيد أن تفارقني منذ اللحظة . فأنا لست فكرةً ، ولا شيئاً يطوف بك في أحلامك . أنا امرأة وأود أن تشتاق إليَّ ، أن تشتهيني . أنا زوجة وأم لأطفال لم يولدوا بعد »[١] .

في هذا بلغت المرأة في فكر جبران ، سن الرشد ـ النضوج ، وهبطت من عالم الخيال، رافضةً التعامل معها إلا على أساس أنها امرأة إنسانة . خرجت من صَدَفتها التي عاشت في ظلمتها في **عرائس المروج** و **الأرواح المتمردة** و **الأجنحة المتكسرة** . خلعت عنها أقنعة وردة الهاني ومرتا البانية ، والعروس ، وسلمى كرامي ، ليظهر وجهها أمام نور الشمس . ولم تعد المرأة بنظر الرجل جسداً فحسب ، وإنما إنساناً كاملاً، جسداً وروحاً معاً. وخرجت من بحران التخيلات والأحلام الصبيانية المراهقة ، إلى رحاب الوجود . واجتازت حدود الهامشية ، لتكون كائناً فاعلاً في الحياة والمجتمع.

إن الرد الجبراني على استبداد السلطتين الزمنية والروحية وتسلطهما ، من خلال أقاصيصه الأولى ، كان رداً خالياً من المنطقية والواقعية حتى أنه جاء تعدياً في بعض الحالات .

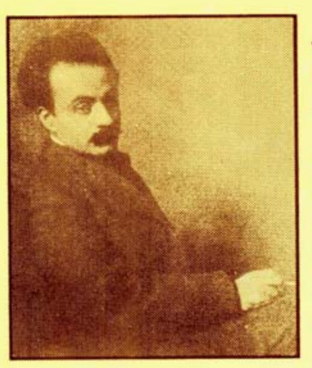
---

(١) المصدر نفسه ، ص ٤٠٧ .

تنفيذ مطبعة دار الكتب - بناية اللعازارية - شارع سوريا
تلفون : ٣٧٠٠٧٣ - ٨١١٥٧١ - ص.ب : ١١٣٥٥٩ - بيروت - لبنان

٣٠٠٠/٩٢/١١٣٠

هذا الكتاب



* كان للمرأة الدور الأساسي في تكوين جبران الفكري والفني، منذ الطفولة إلى الرجولة، وانطلاقاً من ذلك، تكونت لديه مفاهيم في الحب والجنس، ورؤية مميزة إزاء المرأة، برزت في جميع مؤلفاته الأدبية والفنية. وهذا الكتاب يلقي الضوء على النساء اللواتي لعبن دوراً بارزاً في حياة جبران وتاثيرهن على أدبه وفنه، وما ترتب على هذه العلاقة من مؤثرات على نفسية جبران، وتحديداً العقدة الأوديبية، وانعكاساتها على حياته الجنسية، ونظرته السلبية إلى الزواج. إنه كتاب جديد يُضاف إلى المكتبة العربية، وقد يفيد القارىء العادي والباحث في الأدب الجبراني في آن معاً.

دارُ الطّليعة للطّباعة والنشر
بيروت